الأمام البوصيري

فتحي محمد محمد عثمان

الكتاب: الأمام البوصيري

الكاتب: فتحي محمد محمد عثمان

الطبعة: **2018**

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم - الوحدة العربية - مدكور- الهرم - الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 - 35867576 - 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

عثمان ، فتحي محمد محمد

الأمام البوصيري / فتحي محمد محمد عثمان

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

85 ص، **18** سم.

الترقيم الدولى: **5- 599 – 446– 977– 978**

أ – العنوان رقم الإيداع : **22916 / 2018**

الأمام البوصيري



"بسم الله الرحمن الرحيم"

"ومن أحسن قولًا ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إنني من المسلمين"

"صدق الله العظيم"

مقدمة

ان شخصية محمد بن عبد الله رسول البشرية وخاتم الأنبياء كانت ولا تزال مصدر إلهام لكثير من الشعراء ... والمفكرين.

وما من شك في أن الروابط التي تربط المسلم بنبيه عليه الصلاة والسلام أنما هى روابط وثيقة اذ أنها تنير له طريق الوصول إلى معرفة الله معرفة صادقة.

وكان من أوائل رواد فن المدائح النبوية حسان بن ثابت وكعب بن زهير والفرزدق والكميت في العصور الإسلامية الأولى.

ثم تبعهم نفر من الشعراء الذين أبدعوا في هذا الفن إبداعًا يلهب الشوق إلى رسول الإسلام وآل بيته الكرام، والبوصيري أمام المادحين ومن أئمة الصوفية المعدودين الذين خلد فكرهم فقد أفاض وأجاد في مدح الرسول الأكرم وقدم للعالم الإسلامي "بردته" الخالدة وهمزيته التي مطلعها:

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء

واذ أقدم للقراء شخصية البوصيري أمام المادحين وبردته العصماء فهى جديرة بالإشادة والدراسة والله ولي التوفيق.

المؤلف

الباب الأول
من هو البوصيري؟

هو الأمام الجليل محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن أبي سرور بن حيان بن عبد الله بن ملاك الصنهاجي.

وقيل: هو أبو عبد الله شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد ابن محسن بن عبد الله بن صنهاج الدلاصي المولد، والمغربي الأصل، البوصيري المنشأ.

ولقب البوصيري بالصنهاجي، وهو شاعر مصري في الدرجة الأولى، وله في المدائح النبوية جهد ومقام لا يبارى وقد حاز فيها قصب السبق بلا منازع.

والسبب في تسميته بالصنهاجي أنه من احدى قبائل البربر وكانت تسمى صنهاجة وأصل وطنها الصحراء جنوب المغرب الأقصى، ولذلك يدل نسبه إلى صنهاجة على أنه ينحدر من أصل بربري والسبب في تسميته بالبوصيري نسبة إلى بوصير قوريدس من قرى بني سويف والسبب في تسميته بالدلاصيري أن أحد أبويه من بوصير والآخر من دلاص فسماه بعضهم الدلاصيري وقد أشار البوصيري إلى أصله المغربي معتزًا به قوله:

فقل لنا من ذا الأديب الذي زاد به حــــبي ووسواس
ان كان مثلي مغربيًـــــا فما في صحبة الأجناس من باس
وان يكذب نبتي جئته بجبتي الصوف ودفاس

ولعل الشاعر هو الذي أراد أن يطلق على نفسه لقب الدلاصيري قال ابن تغري بردي.

وكانت له – يعني البوصيري – أشياء مثل هذا يركبها من لفظين مثل قوله في كساء له بساط، فقيل له لماذا تسميه بذلك، فقال لأني تارة أجلس عليه وتارة ارتديه فهو كساء وبساط.

أراء حول مولده:

وقد ذكر المقريزي أن البوصيري ولد بناحية دلاص في حين أن ابن تغري بردي ذكر أن مولده ببهشيم من أعمال البهنسا، واتفق هذان المؤرخان على أنه ولد في يوم الثلاثاء أول شوال ولم يقطع المقريزي بالسنة التي ولد فيها الشادي فذكر ما قيل من أنه ولد سنة **607** أو **608** أو **610**هــ.

أما ابن تغري بردي فذكر أن ميلاده كان في سنة **608**هــ وتبعه في ذلك صاحب شذرات الذهب وابن حجر الهيثمي.

واذا صح ما قيل أنه ولد سنة **608**هــ فإن ذلك التاريخ كان يوافق **7** مارس سنة **1213**م وتأييدًا لهذا الكلام نسوق ما قاله الاستاذ

محمد رشيد كيلاني في كتابه الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي ص 322 اذ يقول ما نصه:

"كان أحد أبويه من بوصير والثاني من دلاص، فسماه بعضهم الدلاصيري"

والعامة اليوم يسمونه الاباصيري، ويطلق اسم الاباصيري على أحد الشوارع الصغيرة بالجيزة.

مولده:

ولد عام 608هـ في عهد الملك العادل أبي بكر بن أيوب وهو العام الذي توفى فيه ابن سناء الملك الشاعر المصري وتوفى 696هـ فكأنه عاش ما يقرب من تسعين سنة شاهد خلالها كثيرًا من أهوال الحروب الصليبية ومصائبها.

شعره في الرد على من أنكر نبوة محمد:

وقد أكثر البوصيري من الرد على من افترى على الإسلام وناقشهم وجادلهم وأقام الحجة عليهم ففي بعض مدائحة النبوية ينعي عليهم انكار نبوة محمد مع أن التوراة والأنجيل بشرا به فيقول:

أن أنكرته النصارى واليهود على ما بينت منه توراة وأنجيل
فقد تكرر منهم في جحودهم للكفر كفر وللتجهيل تجهيل

ومضى البوصيري يخاطب النصارى ويقول لهم أن اليهود تكرر منهم الكفر والجحود فكفروا بعيسى ثم بمحمد وأنتم قلدتموهم في الكفر ومع أنكم صدقتم توراهم فإنهم كذبوا انجيلكم.

شعره ضد طبقة المستخدمين في عصره:

ويظهر لنا البوصيري صورة صادقة في شعره للأداة الحكومية في ذلك الحين.

ويظهر من هذا أن البوصيري لم يكن راضيًا عن تصرفات المستخدمين، بل كان شديد السخط عليهم، حتى لا يخلو واحد من سخطه، ويراهم نكبة على البلاد قد أحالوها جحيمًا وشقاءً.

استمع إلى البوصيري اذ يقول:

أقاموا في البلاد لهم جباة لقبض مغلها كالمقطعينا
تحيلت القضاة، فخان كل أمانته، وسموه الأمينا
تورع معشر منهم وعدوا من الزهاد والمتورعينا
ومن ألف الخيانة كيف يرجى له أن يحفظ اللص الخئونا

والبوصيري لا يبني حكمه هذا على المستخدمين في عصره عبثًا، بل بناه على تجربة طويلة، وخبرة ملموسة لمسها بنفسه، حيث وجد البلوى عامة، لم تقتصر على المستخدمين، بل تعدهم إلى غيرهم من الفقهاء.

ولذلك لم تطق نفسه صبرًا في السكوت على هذه الحالة التي لا ترضي الله فجادت قريحته بهذا اذ يقول:

ثكلت طوائف المستخدمينا	فلم أر فيهم رجلًا أمينًا
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم	مع التجريب من عمري سنينًا
وكم جعل الفقيه العدل ظلمًا	وصير باطلًا حقًا مبينًا

ان ثورة البوصيري على الأوضاع الإجتماعية السائدة في عصره قد أدت إلى تغيير هذه الأوضاع مما يجعلنا مطمئنين إلى أن البوصيري مصلح اجتماعي له في هذا الميدان جهد لا ينكر ومجهود يجب أن يسجل ويقرر فقد انتقد كثيرًا من أوضاع المجتمع السائدة في عصره نقدًا مرًا مما يدل على انطباع احدى صور المجتمع في شعره.

فقد كان العمل الحكومي للبوصيري في بلبيس وغيرها مهيئًا له الاتصال بطوائف كثيرة من المستخدمين ويظهر من شعره أنه لم يكن راضيًا عن تصرفاتهم بل كان شديد السخط عليهم حتى أنه لم ينج واحد من سخطه، ويراهم نكبة على البلاد وقد أحالوها جحيمًا وشقاءً اذ يقول:

أرى المستخدمـــين مشوا جميعًا   على غير الصراط المستقيم
معاشر لو ولوا جنات عدن   لصارت منهم نار الجحيم
فما من بلدة إلا ومنهم   عليها كل شيطان رجيم
فلو كان النجوم لهم رجوما   اذا خلت السماء من النجوم

والبيت الأخير يدل على كثرة عددهم، وكثرة مساوئهم ومهازلهم، وفي قصيدة أخرى مطولة شرح كثيرًا مما يأخذه عليهم، وأهم ما جعله ساخطًا عليهم جميعًا انصرافهم إلى المال وجمعه، انصرافًا شغلهم عن واجبهم، وجعلهم يتكالبون على جمع الثروة من غير طرقها المشروعة.

ولم يخل من سخطه جماعة الكتاب ولا القضاة ولا الفقهاء، ولا جماعة النظار، فكلهم في السعي وراء المال سواء، الجميع متكالبون على المادة تكالبًا أعمى لدرجة أنه ألهاهم عن طريق الصواب، فجميع الموظفين اذ ذاك كانوا يسرقون ويرتشون، وأنهم لولا ذلك لما لبسوا الحرير ولما شربوا الخمور.

شعره الديني:

وشعره في المدائح النبوية قوي جدًا، لأنه حاكي فيه حسان ابن ثابت وكعب بن زهير ونسج على منوالهما.

وقد امتاز شعره هذا بالخصائص الشعرية العالية، وقد تناول مواضيع علمية يندر الاجادة فيها إلا عند البوصيري، كشعر السيرة النبوية ووصف رجالها، وكوصف القرآن واعجازه ووصف المتعامين عن هديه وكتحليله بعض العقائد الرائجة عند أهل الكتاب ونقضها بأسلوب بارع ومقارعتهم بالحجة فيها كعقيدة الفداء.

فجند في شعر البوصيري تحليلًا لهذه العقائد وغيرها تحليلًا يجمع بين تحقيق العالم وصولة الجدلي، وكل ذلك في أسلوب شعري من أروع ما يقرأ وأحلاه، وكل ذلك من غير أن يفقد شعره الخصائص الشعرية العالية التي لا يكون الشعر شعرًا إلا بها، والبوصيري مع تلك الخصائص التي امتاز بها شعره يعد في طليعة علماء السيرة وعلماء الدين والمؤرخين للأديان والاختصاصيين في تفاصيلها.

كرامات الأمام البوصيري:

اذا كان لنا أن نتحدث في هذا الصدد عن كرامات ذلك الأمام الجليل فإن المقام هنا لا يتسع لتعداد أمثال كراماته ولكن يكفي أن نسوق بعض هذه الكرامات على سبيل المثال فقط لا على سبيل الحصر.

فمن هذه الكرامات التي وردت في أمهات كتب التاريخ هذه الكرامة وملخصها:

حدث أن كان الأشرف خليل يريد القيام بحملة، الهدف منها انتزاع عكا من أيدي الصليبيين، واذا صح ما يقوله علماء النفس من أن جزءًا من الأحلام تنفيس لآمال مكبوتة في النفس ورغبات تريد أن تتحقق.

فإننا نجد أن البوصيري كان مشغولًا يدعو الله دائمًا أن يطهر أرض الشام من آخر صليبي فيها على يد أحد القادة العظام، ولشدة انشغاله، رأى في منامه الحرب تدور بين المسلمين والصليبيين.

فرأى البوصيري صورة لهذه الحرب في منامه كما وقعت فعلًا بعد ذلك رأى كل جندي من جنود المسلمين يمضي إلى القتال لابسًا درعه وعلى رأسه المبيضة أو المغفر، وفي يده ترسه أو درقته، ويتسلح بالسيف والرمح أو الدبوس، وقد سار الجيش إلى الحرب حاملًا آلات القتال متخوفًا من الأبراج الثلاثة التي صنعها الصليبيون من الخشب والحديد وألبسوها الجلود المسقاة بالخل حتى لا تنفذ فيها النيران وقد ضرب الملمون أعدائهم بالمجانيق ولكنهم لم يهدموا حصون الصلبيين في عكا وأن كانوا قد أحرقوا أماكن العدو بالنفط.

وضربوا بالدبابات الأسوار، وألقوا على الأعداء بندقًا من الحديد وزنه من عشرة أرطال إلى مائة رطل.

كما ضربوا الأعداء بالنار اليونانية، التي كانت تركب من زيت النفط والكبريت والجير والقار، وكانوا يقذفون هذه النار من فوق الأبراج أو الأسوار في آنية كبيرة، أو تطلق في كرات مشتعلة من الحديد والحجارة، أو سهام ملتوية قد لفت بالقنب والوبر والشعر مشبعة بالسائل الملتهب.

ولكن الأبراج الثلاثة ظلت تهدد المسلمين، ويوشك الأعداء أن يقتلوا عددًا كبيرًا من جنودهم، واشتد خوف المسلمين ورعبهم ويئس المحاصرون في المدينة [1] حتى ذهب خوفهم من حيلة شاب نحاسي من أهالي دمشق ثم رأى بعد ذلك صوتًا يعلو من خلال هذه المعركة يقول:

قد أخذ المسلمون عكا وأشبعوا الكافرين صكا

وساق سلطاننا إليهم خيلًا تدك الجبال دكا

وأقسم الترك منذ سارت لن يتركوا للفرنج ملكا [2]

وقد أشار إلى هذه الرؤيا المقريزي في كتابه السلوك [3] .

وكانت هذه الرؤيا قبل مسير الملك الأشرف خليل بن قلاوون إلى حصار عكا في شوال تسع وثمانين وستمائة.

فلما انتبه الشيخ شرف الدين البوصيري من منانه أخبر بهذه الرؤيا جماعة من أصحابه، فلما توجه الأشرف خليل إلى عكا، فتحها الله على يديه.

وكان الأمر كما قال الهاتف في المنام، وأخذت عكا.

---

[1] - راجع مواقف حاسمة للأستاذ محمد عبد الله عنان.

[2] - راجع تاريخ ابن اماسي جـ 1 ص 142.

[3] - راجع الجزء الأول من القسم الثالث ص 766 طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة طبعة سنة 1939.

ألا يدل ذلك على أن البوصيري صاحب كرامة، كما يقول الحديث النبوي الشريف.

"الرؤيا جزء من تسع وتسعين درجة من النبوة"

أما حيلة الشاب النحاسي التي نجا بها المسلمين من أعدائهم الصليبيين، فإنه لما قامت هذه الحرب، واشتد ذعر المسلمين، حضر شاب نحاسي من دمشق، وأخبر القوم أن له صناعة في احراق هذه الأبراج العالية علو الجبال والتي يسع الواحد منها خمسمائة مقاتل، بشرط أن يمكنوه من دخول عكا، ليحضر الأدوية التي يعرفها [4].

ولما مكنوه من دخولها، طبخ الادوية مع النفط في قدور نحاسية حتى صار الجميع كأنه جمرة نار، ثم ضرب واحدًا بقدر، فلم يكن إلا أن وقعت فيه، فاشتعل من ساعته ووقته، وصار كالجبل العظيم من النار طالعة ذؤابته نحو السماء، واستغاث المسلمون بالتهليل وعلاهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب.

وبينما الناس ينظرون ويتعجبون اذ رمى البرج الثاني بالقدر الثانية فما كان إلا أن وصلت إليه، واشتعل كالذي قبله، فاشتد ضجيج الفئتين، وما كان إلا ساعة حتى ضرب الثالث فالتهب، وغشى الناس من الفرح والسرور ما حرك ذوي الأحلام [5].

---

[4] - راجع حالة مصر والشام في عهد الدولة الصليبية للدكتور أحمد أحمد بدوي.

[5] - راجع النوادر لابن شداد ص 103.

راجع كتاب الشوارد لابن شداد ص 103.

فإن صحت نسبة هذه الحادثة إلى الأشرف فإنها تدلنا على أن البوصيري كان يتنبأ بالأمور الغيبية أحيانًا.

وإن صح ما ذكره المقريزي في هذا الصدد وهو صحيح على الأرجح فإن ذلك أكبر دليل على اخبار البوصيري بالمغيبات.

وهذه كرامة ولا يتعارض هذا مع اختصاص الله سبحانه بعلم الغيب في قوله تعالى:

"عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدًا".

فإن هذه الكرامة حدثت للبوصيري لصفاء روحه الأمر الذي جعله يستطيع أن يرى من نور ما لا يراه غيره أو يسمعه.

حول البردة:

ان بعض المحبين للبوصيري أرادوا أن يرفعوا من قدر البردة، فنسبوا إليها أشياء وغالوا فيما نسبوه إلى البوصيري من كرامات في البردة، حقيقة أن بعض ما نسب إليها صحيح، ولكن بعضها مغالًا فيه ونقتصر هنا على الصحيح ونترك ما عداه ما دامت صحته لم تثبت على الإطلاق.

فالصحيح ما ذكر من قصة الشيخ الحملاوي [6] حين أصيب بخراج في بطنه استعصى على الأطباء شفاؤه، فأرسل من يحج عنه على حسابه الخاص وأمره أن يقرأ البردة أمام قبر الرسول متجهًا له بالشفاء.

وفي هذه الساعة التي قرئت فيها البردة أمام قبر الرسول انفجر الخراج من قلب الشيخ الحملاوي، وخرج الدم بكثرة حتى ملأ الحجرة ثم شفي بعدها.

ولما عاد الحاج من رحلته أخبره أنه قرأها الساعة كذا في يوم كذا أي نفس الموعد الذي انفجر فيه الخراج وخرج الدم من قلب الشيخ الحملاوي.

ومن الصحيح أيضًا ما روى عن رجل أنه كان يقرؤها ويواظب على قراءتها وأن بعض جيرانه كانوا يشمون رائحة جميلة تخرج من حجرته أثناء قراءته للبردة، وتهب عليهم بين الفينة والفينة [7].

واذا كنا نرى أن البوصيري كتب الشعر في أغراض مختلفة، وقال الشعر البليغ جده وهزله، ونظم من جزله ومرذوله، وفصيحه وعاميه، وعرضت عليه وظيفة الحسبة فرفضها، معتقدًا أنها لا تتناسب مع علو قدره.

---

[6] - راجع طرز البردة.

[7] - راجع الأدب العربي للاستاذ محمد النواوي.

وأنه كتب الرسائل الأنيقة، واتخذ كتابة الدواوين صناعة له، وتصرف في مناصب كثيرة بالقاهرة والأقاليم.

كما رأينا أنه عين مباشرًا لمديرية الشرقية مدة في عهد السلطان الظاهر بيبرس الذي كان يحبه ويجله ويقربه منه، لما وثق من صلاحه وتقواه وصراحته وجرأته في قول الحق.

فإنه يجدر بنا في هذا الصدد أن نشير بصفة خاصة إلى أنه مال في آخر حياته إلى الزهد وأقام بالإسكندرية إلى أن توفى ولازمه التوفيق فيها حيث قضى بها ما بقى له من عمر.

وتذكر بعض كتب الصوفية [8] أن البوصيري كان من أصحاب الهمة العالية وكان ذا قربى وذا حظوة عند السلاطين والأمراء.

كما تذكر أن البوصيري تعرف بأهل الصلاح والتقوى والعلم في الإسكندرية وانقطع إلى التصوف ومال إليه ودرس آدابه وأسراره، وقد سلك على يد المربي سيدي أبي العباس المرسي، وأخذ عنه علم الحقائق والأسرار، وأصبح يزار من جميع الأمصار ونشأت بين البوصيري وشيخه علاقة حب، لدرجة أنه تأثر بتعاليم أستاذه وظهرت هذه التعاليم بوضوح في شعره.

كما ذكرت كتب الصوفية أن البوصيري اشتهر بالقصائد والموشحات في مدح الرسول الأعظم.

---

[8] - راجع طبقات الشاذلية الكبرى.

وقد جاء في كتاب طبقات الشاذلية الكبرى أنه دام له الاجتماع بالنبي في اليقظة والمنام وكان جسده طيب الرائحة يشمه الكبير والصغير واشتهر بالعفة والوقار.

وما زال موضع اجلال العلماء والأدباء ملتزمًا طريق الخير منتهجًا التقوى والورع والصلاح والطريق المستقيم إلى أن أتاه أمر ربه سنة **695**هـ أو **697**هـ على ما قاله المقريزي وصاحب شذرات الذهب ولكن شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر العسقلاني ذكر أن البوصيري توفى سنة **694**هـ الموافق **1295** ميلادية وأني أؤيد هذا الرأي وأختاره.

وقد دفن البوصيري في قبره الذي شيد عليه مسجده المسمى الآن باسم مسجد البوصيري.

فالواجب علينا أن نحيي هذا الرجل، وأن نقدم أعماله للناس، فهو جدير بأن يعد في جحافل العروبة، لأنه خدم العروبة وأسدى إليها الكثير من النصح والمعرفة مما مكن لنهضتها وأرسى من حضارتها، وأعز من لغتها وأثرى من فنها وأذاع من أفكار الإسلام ومبادئه ودافع عن حياضه ضد المغرضين والعابثين والحاقدين على الإسلام ومجده.

وبنى – بكل هذا أو بشيء من هذا – له مجدًا وجعل به للعروبة في العالمين ذكرًا ومضى في طريقه هذا غير هياب ولا وجل، مما يقوله الحاقدون، وكان مثله مع المعادين له مثل من قال:

واصبر على كيد الحسود فإن صبرك قاتله
النار تأكل بعضها ان لم تجد ما تأكله

لأنه كان يؤمن كل الإيمان أن أعداءه يخدمونه من حيث لا يشعرون متمثلًا في هذا السبيل قول الشاعر:

واذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

ولذلك وقف البوصيري من معانديه موقفًا صامدًا كالطود الأشم والجبل الراسخ، شأنه في ذلك شأن الأبطال والصناديد الذين يضعون نصب أعينهم قول الشاعر:

ان يحسدوني فإني غير لائمهم قبلي من الناس أهل الفضل قد حسدوا
ودام لي ولهم ما بي وما بهـــم ومات أكثرهم غيظًا بما يجد

(وقد وجدت أن أقوال الناس تتناسب تناسبًا عكسيًا مع أقدارهم وهذه احدى بديهيات الأخلاق).

وهذه الحياة نقدمها اليوم، مؤدين بعض هذا الدين لهذا الرجل العظيم بعد أن ظلت مطوية سنوات وسنوات.

الباب الثاني
البوصيري مصلح اجتماعي

الشعر الديني والتهذيبي:

ان غاية ما يهدف إليه المصلحون الدينيون في كل عصر هو التربية الخلقية التي تعمل تكوين شخصيات مهذبة ونفوس أبية ذات إرادة قوية وعزيمة صادقة وأخلاق عالية، يتحلون بمكارم الأخلاق، ويعرفون الواجب ويقومون به ويقدرون حقوق الإنسانية ويختارون الفضيلة حبًا للفضيلة، ويجتنبون الرذيلة لأنها رذيلة، ويراقبون الله في كل عمل يسند إليهم أو يقومون.

وفي كتاب الله عز وجل ثناء على الرسول الأعظم محمد بن عبد الله، اذ مدحه ربه بقوله "وانك لعلى خلق عظيم".

وقال أبو بكر للرسول لقد طفت العرب وسمعت فصاءحهم فما رأيت ولا سمعت مثلك أحدًا فمن أدبك ؟ قال "أدبني ربي فأحسن تأديبي" وللتربية الخلقية في الإسلام وسائل منها:

1- الطريقة المباشرة وهى طريقة الوعظ والإرشاد والنصح، وذكر الفوائد والمضار بأن توضح للمتعلمين الأمور النافعة والضارة وتعظمهم وترشدهم إلى الخير وتحثهم على عمل الفضائل واجتناب الرذائل.

2- الطريقة غير المباشرة وهى طريقة الإيحاء كأن يلقن الأطفال أحسن الشعر في الحكم وأحسن النصائح والاخبار، وأحسن الشعر في دراسة سير الأولين.

وكثيرًا ما استعمل علماء التربية الإسلامية الشعر في الأغراض الخلقية لأوزانه الموسيقية وعباراته الجميلة وقافيته المؤثرة.

مما يجعل وقعه جميلًا على النفس ويوحي إليها إيحاءً مؤثرًا ويتبع الأمريكيون بالولايات المتحدة هذه الطريقة في التربية إيمانًا منهم بأن الشعر الديني أو التهذيبي هو الذي يصقل العقول ويهذب الطبائع، وهو خير حافز لعمل الخير واجتناب الشر.

وإيمانًا منهم أيضًا بأنه المشعل الذي يضيء الطريق لأبناء الأمة اذًا أصيبت بنكسات أو أحيطت بظلمات لأنه لا يشتمل على دراسة للأخلاق والعادات فحسب، بل يرسم صورًا لأعلام الإسلام وللرعيل الأول منهم، ونستطيع أن نتخذ منه العبرة والعظة [9].

فالشعر هو الذي يوحي للمواطن إيحاءً داخليًا، ويعمل على توجيهه وجهة الحق والخير والجمال.

ونجد تأييدًا لذلك ما ذهب إليه العلماء في مجتمعنا الإسلامي فكم من أناس ضلت بهم الطريق، وذهبوا إلى أبعد حد في الغواية والضلال، ثم سمعوا هذا الشعر الديني فتغير مسلكهم، وابتعدوا عن طريق الرذيلة

[9] - راجع كتاب التربية الإسلامية للأستاذ محمد عطية الإبراشي طبعة 1964.

وتقربوا إلى الله بصالح الأعمال، وسكبوا عبرة الندم على ما فات منهم، وعلى ما قدموه من آثام، وعدوا في عداد التوابين المتطهرين، بل لا أبالغ اذا قلت أن بعضهم قد وصل إلى درجة الولاية.

فالأمام البوصيري بعد أن عاش فترة في الشرقية مباشرًا لها، وحدث منه ما حدث وسمع قصيدة البردة التي قالها كعب بن زهير أمام الرسول، تغير مسلكه واتجه إلى التصوف والزهد.

ولما ابتلى بمرض نذر لله أن يعمل قصيدة يخدم بها الدين اذا شفى من مرضه، وشاء الله أن يشفيه وينشد قصيدته العصماء البردة، وعد بذلك من الأولياء [10].

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وإلى ذلك يشير الأمام البوصيري معترفًا بما حدث منه من ذنوب اذ يقول:

خدمته بمديح استقيل به	ذنوب عمر مضى في الشعر والخدم
اذ قلداني ما تخشى عواقبه	كأنني بهما هدي من النعم
أطعت غي الصبا في الحالتين وما	حصلت الا على الآثام والندم
فيا خسارة نفس في تجارتها	لم تشتر الدين بالدنيا ولم تسم
ومن يبع آجلًا منه بعاجله	يبين له الغبن في بيع وفي سلم

[10] - راجع الموازنات في النقد الأدبي طبعة عام 1961.

ثم يبين أمله في الرسول وأنه لن يخيب رجاءه، ولن يرده عن باب التوبة، لأن الرسول أكرم الناس خلقًا، ويأبى كرم أخلاقه أن يرده خائبًا وخاصة اذا كان اسمه على اسم الرسول:

إن آت ذنبًا فما عهدي بمنتقض	من النبي ولا حبلي بمنصرم
فإن لي ذمة منه بتسميتي	محمدًا وهو أوفى الخلق بالذمم
إن لم يكن في معادي آخذًا بيدي	فضلًا وإلا فقل يا زلة القدم
حاشاه أن يحرم الراجي مكارمه	أو يرجع الجار منه غير محترم
ومنذ الزمت أفكاري مدائحه	وجدته لخلاصي خير ملتزم

وأمامنا مثل آخر على تأثير الشعر الديني على النفوس ويتمثل في أمير الشعراء أحمد شوقي.

فقد كان معاقرًا للقيان شاربًا للخمرمعربدًا مع النساء، يغشى الليالي الحمراء، ويتمتع بما يتمتع به من المحرمات وظل هكذا ردحًا طويلًا من الزمن إلى أن مرض، وفي أثناء مرضه العضال دخل عليه أحد الصالحين يتلو برده البوصيري بحضرته بلحن عذب وصوت شجي أبكى أمير الشعراء وجعله يتوب ويغير مسلكه على الفور – وفوق هذا نجد أنه نذر لله أن شُفِيَ ليعملن قصيدة يمدح بها الرسول ويتقرب بها إلى الله أسوة بالإمام البوصيري.

وفعلًا عمل شوقي قصيدة نهج البردة التي عارض فيها البوصيري وأصبح من المقربين إلى الله ولكنه يتواضع ويعترف بالضعف أمام البوصيري اذ يقول:

المادحون وأرباب الهوى تبع ... لصاحب البردة الفيحاء ذي القدم
الله يشهد إني لا أعارضه ... من ذا يعارض صوب العارض العرم
وإنما أنا بعض الغابطين ومن ... يغبط وليك لا يذمم ولا يلم

ويشير شوقي إلى أنه تاب إلى الله وأناب، وندم على ما فرط منه، ويأمل في عفو الله ورحمته، وقد وسعت رحمته كل شيء.

فيقول:

ان جل ذنبي عن الغفران لي أمل ... في الله يجعلني في خير معتصم
ألقي رجائي اذا عز المجير على ... مفرج الكرب في الدارين والغمم
اذا خفضت جناح الذل أسأله ... عز الشفاعة لم أسأل سوى أمم
وان تقدم ذو تقوى بصالحة ... قدمت بين يديه عبرة الندم
لزمت باب أمير الأنبياء ومن ... يمسك بمفتاح باب الله يغتنم

حول الشعر الديني:

وعلى الرغم من أن علماء النفس قد قرروا أن الشعر الديني والتهذيبي له تأثير قوي على النفوس وخاصة لدى الناشئة، فهم يتأثرون به لما فيه من حكم عربية ووصايا خلقية تعمل تقويم المعوج من الأخلاق، وتعمل على

صفاء النفس وراحة الضمير وعلى تربية الروح تربية ممتازة، ولما فيه من خاصية التأثير لأنه يصل إلى الأذان بلا استئذان، وللأنه يجري في النفوس مجرى الدم في الشرايين.

ولما فيه من خلاصة التجارب الإنسانية التي مرت بالشاعر فانفعل بها وتأثر وجعلها تؤثر في غيره مما جادت به قريحته من هذا الشعر القيم.

ولكن لا زال بيننا نحن المسلمين في بلاد المشرق من يدعو إلى دعوة في منتهى الخطورة، وهى أن الشعر الديني والتهذيبي والصوفي شعر سلبي وغير ايجابي وغير ملتزم، ولهذا فهو ليس من الشعر الجيد ولا من الشعر الخالد وأنه يسير بالناس القهقرى، وأنه لا يظهر إلا في أوقات الضعف وتفكك الأمم واضمحلالها.

إلى آخر هذه الدعاوي التي يروجها بعض أدباء عصرنا عن الشعر الديني.

وما زالت دعويهم البراقة تجد لها صدى في بلادنا، وكان نتيجة لهذا الصدى أن أهمل شأن هذا الشعر اهمالًا فاضحًا، اذ لا نجد له مكانًا بين الدراسات والبحوث المستفيضة بالجامعات والمعاهد العليا، وإن وجد ففي أضيق الحدود، ونادرًا ما نجد له اهتمامًا، كما أننا لا نجد اهتمامًا بشأنه في شتى المحافل العلمية والأدبية وإن وجد فبقلة أيضًا.

وما زلنا نسمع أن من يتعرض لشرح هذا الشعر يلقى هجومًا عنيفًا لأنهم يعتبرون أن هذا النوع من الشعر نقاط جزئية، لا تصلح لبحث متكامل.

ولأنهم يرمون من يقوم بهذه الدراسة بأنه ضيق الأفق يريد أن يرجع بالناس القهقرى.

كما أنه لا ترصد له المكافآت والجوائز التي ترصد لغيره من الفنون الأدبية عادة، ولا يحظى مؤلفوه وشراحه بالعناية والتقدير شأن غيره.

ولنا أن نقف هنا قليلًا لنحلل هذه المشكلة تحليلًا جذريًا ونبين هذه الدعاوى، ثم نرد عليها دعوة دعوة، تصديقًا لقول الله عز وجل:

"ليحق الحق ويبطل الباطل".

أما أن الشعر الديني والتهذيبي والصوفي شعر سلبي وغير إيجابي وغي ملتزم، فهذه القضية تحتاج إلى مناقشة وتفنيد اذ لا أسلم إطلاقًا بما يقوله هؤلاء الأدباء عن الشعر الديني والتهذيبي والصوفي.

فالشعر الديني في نظرهم يتجه إلى الناحية السلبية في الأمة ولا يتجه إلى الناحية الإيجابية فيها، فهو عندهم شعر انتكاسي وتأخري يميل إلى الوراء ولا يتجه إلى نواحي التقدم ولا إلى النواحي الإيجابية في الأمة، وهو عندهم ليس شعرًا جيدًا ولا ملتزمًا.

ولست أدري ما مرادهم من أن هذا الشعر غير إيجابي ؟

هل هو غير إيجابي من ناحية الغرض ؟ أو من ناحية البلاغة ؟

إن كان هذا هو قصدهم، فقد أخطأوا كل الخطأ لأن هذا الشعر قد أدى الغرض المقصود من حيث ما احتوت عليه الأبيات من معان خالدة.

أما اذ لم يكن فيه شيء من البلاغة الحديثة فذلك ما لم يقل به أحد لأن كل أبياته فيها روعة وبلاغة وجمال تعبير.

وتستطيع أن تدرك ذلك بوضوح حين تبحث منقبًا في أبياتها متنقلًا بين أجزائها وعناصرها، باحثًا عن سر الجمال وروعة التعبير وحسن العرض.

أما أنه لا يؤدي إلى الأمام وأنه يسير بالناس القهقرى فما ذلك إلا لأن الناس قد تركوا الدين وراءهم ظهريًا ولم يحفلوا إلا بأشعار الخلاعة والمجون، وترتب على ذلك أن أصبح هذا الشعر نسيًا منسيًا.

على أننا أنصافًا للحقيقة يجب أن نبين أن الشعر الديني والتهذيبي والصوفي إيجابي وملتزم، ويعمل على التوازن النفسي للشعوب وله دور هام في توجيه البشر نحو الحق والخير والجمال.

وهو المعين النفسي للأمة وقت أن تظلم سبلها حين تطحنها الحوادث وغارات الأعداء والحروب، بل أنه يعمل على راحة نفسية لا تعدلها راحة.

ذلك لأن الإنسان مفطور بطبعه على حب الدفاع عن النفس، فإذا عجزت وسائله المادية عن الدفاع، وشعر بالإفلاس وعدم القدرة على الكفاح والنضال لجأ إلى الله بهذا الدعاء الديني يدعوه ويلحف في الدعاء ويلح في التضرع والاستغاثة أن يحفظ البلاد من شر غارات المغيرين وكيد الكائدين.

وليس هناك من وسيلة ينفث بها عن هذا الكرب النفسي الذي أصابه بعد عجزه عن الجهاد سوى التوصل بهذا الشعر إلى الله عز وجل، من مثل قول البوصيري:

يا رب واجعل رجائي غير منعكس   لديك واجعل حسابي غير منخرم
والطف بعبدك في الدارين أن له   صبرًا متى تدعه الأهوال ينهزم

ومن مثل قول شوقي:

يا رب هبت شعوب من منيتها   واستيقظت أمم من رقدة العدم
رأى قضاؤك فينا رأي حكمته   أكرم بوجهك من قاضٍ ومنتقم
فألطف لأجل رسول العالمين بنا   ولا تزد فوقه خسفًا ولا تسم
يا رب أحسنت بدء المسلمين به   فتمم الفضل وامنح حسن مختتم

فالشعر الديني اذن، صدى للإنفعالات النفسية العنيفة وهو خير منفث عن آلام الأمة وأحزانها بما نجد فيه من ابتهالات ومناجاة لله عز وجل أن ينقذ البشرية الضالة ويشملها بحلمه وكرمه وعطفه وهو شعر

جيد لأنه يرسم لنا صورًا إسلامية نحتذي حذوها ونسير على هداها، فهو شعر المثل حقًا.

والحقيقة التي لا جدال فيها أن هذا الشعر له دور إيجابي وهام في تطوير حياة الشعوب وتحسين حالة المجتمع وجعل الأغنياء ينفقون المال في وجوهه المشروعة ونهيهم عن الشح والبخل.

وهو بهذا يساهم في بناء مجتمع اشتراكي تسوده العدالة في التوزيع والكفاية في الإنتاج.

كما أنه يؤدي إلى تطوير الحضارات بمزجه بين المادة والروح والإرتقاء بالنفس من الأرض الترابية إلى السماء وإلى عالم قدسي جميل، وقديمًا أمر أحد الفاتحين بالبدء ببناء النفوس وتقويمها قبل بناء القصور.

وقديمًا طلب الشيخ محمد عبده من الزعيم أحمد عرابي يبدأ ببناء الرجال وصقلها بالتربية القويمة قبل أن يبدأ ببناء الجيوش.

واذا كنا نجد أن شاعرًا دينيًا مثل عبد المطلب في قصائده وخاصة قصيدته البائية التي حفلت بكبريات الأحداث التي مرت بالمسلمين، كما حفلت بذكر عظماء الرجال الذين جاهدوا في سبيل نصرة الدين وتثبيته في العالمين.

نراه ذكر أكبر دليل على أن الشعر الديني شعرًا إيجابيًا يلعب دورًا هامًا في مجرى الأمور وليس شعرًا سلبيًا كما يزعم البعض.

وهذا الشعر يفتح باب الرجاء والأمل أمام المذنب، لأن المذنب الذي لا تحدثه نفسه بالتوبة إلى الله ينقلب إلى قوة يائسة خطرة على المجتمع لا يرجى لها صلاح ولا ينفع معها تخويف، خذ لذلك مثلًا الشاعر:

يا نفس لا تقنطي من زلة عظمت	إن الكبائر في الغفران كاللمم
لعل رحمة ربي حين يقسمها	تأتي على حسب العصيان في القسم

كما أنه يدعو إلى الزهد في الدنيا، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وبغضها رأس كل فضيلة، كما يدعو إلى التنفير من البطنة والبعد عن الشهوات المحرمة، استمع إلى البوصيري حين يقول:

فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها	إن الطعام يقوي شهوة النهم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة	من حيث لم يدر أن السم في الدسم
وأخش الدسائس من جوع ومن شبع	فرب مخمصة شر من التخم
واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت	من المحارم والزم حمية الندم

كما أن هذا الشعر يدعو إلى مخالفة النفس.

ألم يرد في الأثر الثابت "أعدي أعداؤك نفسك التي بين جنبيك"، وإذا كان الأمر كذلك، وأن النفس لها سلطان أقوى من كل سلطان حيث بين ذلك النبي عليه السلام وهو المشرع الأعظم حين رجع من احدى الغزوات.

"رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر قالوا يا رسول الله وما الجهاد الأكبر قال جهاد النفس".

فليس أقدر على الدعوة إلى مخالفة النفس والهوى من هؤلاء الشعراء استمع إلى أحدهم اذ يقول:

وخالف النفس والشيطان وأعصها وان هما محضاك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصمًا ولا حكمًا فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

والحقيقة أن فضائل الشعر الديني والتهذيبي والصوفي لا تحصى ولا تعد، حقًا أن شبابنا لو قرأ هذه الأشعار وتمعنها لسكن قلبه وقرت عينه وهداه الله سبحانه إلى طريق الهداية وأبعده عن طريق الغواية، ولما انحلت أخلاقهم، ولما بعدوا عن الحياة الجادة ولما صار عند البعض منهم شيء من الميوعة أن صح مثل هذا التعبير أن يقال عن بعضهم.

فهو اذن يحمي الشباب من القيادات الفاسدة والمبادئ الهدامة ويجعل منه مواطنًا صالحًا متدينًا متمسكًا بالأخلاق الفاضلة خذ لذلك مثلًا قول البوصيري.

والنفس كالطفل أن تهمله شب على حب الرضاع وان تفطمه ينفطم

دعاوي زائفة:

ومن هذه الدعاوي الزائفة أن الشعر الديني والتهذيبي والصوفي لا يدل على تحضر الأمة، لأنه لا يقال إلا وقت اضمحلال الشعوب

وتفكك وحدها واضطراب أمورها، ولا يظهر إلا وقت أن تطحن الحروب هذه الشعوب حيث توصف بها الشدائد كما أنه لا يظهر إلا في أوقات انتشار الأمراض والأوبئة وظهور الأوجاع الشديدة في الأمة.

ولذلك كثرت فيه الابتهالات الدينية وحفل هذا الشعر بالضراعة والاستغاثة بالله عز وجل أن ينقذ البلاد مما أصابها من وباء أو حل بأبنائها من محن وأرزاء.

وهذه الدعوى يظهر زيفها من أول وهلة، لأن التوسل والاعتراف بقدرة الله سبحانه وإظهار حاجة البشر إليه ليس عيبًا، بل هو من درجات المقربين إلى الله ودعاء الله سبحانه والتوسل إليه يعد من النوافل المحببة، وإلى هذا يشير الحديث القدسي (ما تقرب عبدي مني شبرًا ألا تقربت منه ذراعًا وما تقرب مني ذراعًا إلا تقربت منه باعًا، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها).

ثم لا أدري كيف ساغ لهذا الفريق من الأبناء أن يقول ما قاله في هذا الصدد – هل كان البوصيري حين مدح الرسول عليه السلام بالهمزية كان في حالة ضعف واضمحلال – وهل كان البوصيري حين مدح الرسول عليه السلام بالبردة كان في حالة ضعف واضمحلال ؟ كلا "كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون إلا كذبًا" ونجد من بين هذه الدعاوي دعوة تقول أن الشعر الديني يعتبر بمثابة موضة قديمة بطل

استعمالها لأنه شعر مديح، وقد جاءت النهضة الأدبية المعاصرة فاسقطت فن المدح من فنون الشعر العربي.

وقديمًا كان شعر المدح له القدح المعلى حين كان الشعراء يتكسبون به، أما الآن فقد سقطت قيمة هذا النوع من الشعر، اذ أن الحكام لا يجزلون العطاء لمن يمدحهم الآن.

ولم يعد لدينا في عصرنا الحاضر مجال للتكسب به، لأن التكسب به لا يتفق مع أصحاب الهمم العالية ولا مع الأباء والشمم والكرامة، وغالبية الأدباء تنظر إلى المادحين الآن نظرهم إلى الشحاذين والمتسولين فأصبحوا لا ينظرون إليه على أنه من الفنون الأدبية الرفيعة.

ويمضي أصحاب هذا الرأي في التدليل على دعواهم فيذكرون أن الشعراء الدينيين بريئون من التكسب به، لأنهم قالوه تقربًا منهم إلى الله.

إلا أنه وجدت طائفة من المغاربة تكسبوا به وخاصة بقصيدة البردة بل بالغوا في التكسب بها مبالغة غير كريمة اذ أنشدوها على الأبواب يتخذون منها وسيلة للشحاذة وبلوغ الأرب، واحتكروا نسخها وتأجيرها.

وما ذهب إليه هذا الفريق حجة عليهم لا لهم.

لأن المغاربة حين تكسبوا بالشعر الديني على الأبواب، قد اقتصروا على قصيدة البردة وحدها دون سواها من القصائد الدينية، وعلى فرض

التكسب بهذا الشعر في كل القصائد فهذا ليس عيبًا يحط من شأن هذا الشعر ويهبط بقيمته، بل هذا شرف له وأي شرف.

ألا يكفي هذا الشعر شرفًا أنه حين يسمعه غليظ القلب يرق قلبه ويسخى بالمال ويجود به، ثم ألا يكفي هذا الشعر شرفًا أنه حين يسمعه البخيل الذي لا يجود بشيء حتى ولو ضرب يجعله يخرج عن طبعه ويجود بما عنده.

ولعل من ذهب إلى هذا الرأي قد نسى أو تناسى أهم خاصية للشعر وهى التأثير والتأثر.

وإذا كان الشعر الديني قد وجد فيه ناحية التأثير والتأثر فقد حاز قصب السبق، لأنه تضمن على أهم خاصية للشعر، ويكفي البردة فخرًا أنها ذات أسلوب بلاغي من الطراز الأول ويكفيها فخرًا اعتراف أمير الشعراء أحمد شوقي بفضلها اذ يقول:

المادحون وأرباب الهوى تبع   لصاحب البردة الفيحاء ذي القدم

الله يشهد أني لا أعارضه   من ذا يعارض صوب العارض العرم

وإنما أنا بعض الغابطين ومن   يغبط وليك لا يذمم ولا يلم

هذا مقام من الرحمن مقتبس   ترمي فصاحته سحبان بالبكم

والحقيقة التي لا تقبل نقاشًا أن هذا الشعر الديني والصوفي والتهذيبي شعر جيد وخالد، ولا أدل على خلوده من أنه باق إلى وقتنا هذا على

الرغم من بعد المسافة بيننا وبينه، وكفى احدى قصائده وهى البردة فخرًا أن الشاعر عبد المطلب قلدها بقصيدة سماها "ظل البردة".

ولعله تبع شوقي حين نظم قصيدة نهج البردة مقلدًا الأمام البوصيري في قصيدته البردة العصماء.

فأبى عبد المطلب الا يحاكي بردة البوصيري مثله وهذا ميدانه وليس ميدان شوقي فقال.

أغري بك الشوق بعد الشيب والهرم	سار طوي البيد من نجد إلى الهرم
يا ساري الطيف يجتاب الظلام إلى	جفن مع النجم لم يهدأ ولم ينم

كما قلدها من قبل الشاعر أبو بكر بن حجة الحموي حين يقول:

فعلمه وافر والفضل ناسبه	وحلمه ظاهر من كل مجترم
آدابه تمت لا نقص يدخلها	والوجه تكميله في غاية العظم
قالوا هو البدروالتفريق يظهر لي	في ذاك نقص وهذا كامل الشيم
والبدر في التم كالعرجون صار له	فقل لهم يتركوا تشبيه بدرهم

كما أن البارودي رب السيف والقلم قد قلدها أيضًا، ألا يدل هذا التقليد من فحول الشعراء على أنها من الأدب الحي الخالد هذا فضلًا عن أن بعض الأدباء حاول تشطيرها فمنهم من خمسها ومنهم من سبعها.

ونجد أن قصيدة البردة هذه قد ترجمت إلى عدة لغات، فجاءت هذه الترجمة دليلًا صادقًا على أنها من الأدب الحي الخالد، وألا لما نقلت إلى اللسان الأوروبي.

ونجد أيضًا أنها لم تمت بموت صاحبها بل أنها اليوم تتلى ويترنم بها في الدعاء إلى الله وقد بلغ من إعجاب أهالي الثغر السكندري وخاصة حي بحري أنهم يتلونها يوميًا عقب صلاة المغرب في مسجد البوصيري على شكل ورد أو حلقة ذكر كما كانت من قبل تتلى عند المناسبات السارة، وتنشد في حفلات الزفاف.

وليس هذا الفضل مقصورًا على قصيدة البردة وحدها، فذلك على سبيل المثال لا على سبيل الحصر.

على أن الأمر يستدعينا أن نعرج على مثال آخر من أمثلة الشعر الديني الذي كتب له ولصاحبه الخلود وهو قصيدة نهج البردة التي انبرى لها الشراح والمفسرون وعلى رأسهم الشيخ سليم البشري شيخ الأزهر سابقًا ولا أدل على حيويتها وخلودها أننا اليوم نتغنى بها في الإذاعة.

وكفى شوقي فضلًا وصنيعًا عند الله ما أثاره في شعره الروحي في نفوس الشباب من نزعة روحانية وعزة قومية وهيام بالهداية والدعوة إلى الحق في عصر نحن أحوج ما نكون فيه إلى مثل هذه الصيحات، والأكثار من اسماعها شبابنا لما تحتويه من توجيهات صادقة ومن صور واضحة للمثل الإسلامية العليا، ولما تدعو إليه من الفضائل ومكارم الأخلاق.

واذا كان علماء النفس قد قرروا أن الشعر الديني والتهذيبي والصوفي له تأثير قوي على النفوس وخاصة لدى الناشئة، فهم يتأثرون به لما فيه من حكم عربية ووصايا خلقية تعمل على تقويم المعوج من الأخلاق وعلى تربية الروح، وقد بفضله وأثره في التربية الحقة.

والأجدر بنا نحن المسلمين في هذا العصر أن ننهل من هذا الشعر ونعيد مجدنا الإسلامي القديم وعظمتنا التليدة، وعلينا أن نفكر بجد في تناول هذا الشعر الإسلامي بالشرح والدراسة ونشره على الناس حتى تعم فائدته ويظهر أثره في تكوين المواطن الصالح.

فالأمم لا ترقى بالمال أو الحصون ولكنها ترقى بالعلم والأخلاق،

وليس بعامر بنيان قوم　　　　اذا أخلاقهم كانت خرابا

فبدراسة هذا الشعر ونشره نستطيع تربية الشباب تربية خلقية كاملة، ونستطيع اعادة مجد المسلمين في عصورهم الذهبية ورسم صورة كاملة للحضارة الإسلامية والعربية.

ونقود العالم في الحاضر والمستقبل كما كنا نقوده في الماضي.

الباب الثالث

"اعز شيء في الوجود عالم ينطق بعلمه وعارف ينطق عن وجده"
عارف بالله

البردة آية من آيات الفن وكوكب في سماء الأدب وغرة في جبين الدهر، وتسمى الكواكب الدرية في مدح خير البرية نظمها رحمه الله لأنه أصيب بمرض خطير واستشفع بها إلى الله عز وجل أن يعافيه، وكرر انشادها، ودعا الله وتوسل ثم نام فرأى النبي عليه السلام يمسح على مكان العلة بيده المباركة وألقى عليه بردة، فانتبه معًا في سالمًا غانمًا.

فمن سماها برأة فلأن البوصيري بريء بها من علته ومن سماها بردة فلأن الرسول خلع عليه البردة في المنام وقد سميت أيضًا قصيدة الشدائد لأنها في زعم الكثيرين تقرأ لتفريج الشدائد وتيسير كل أمر عسير.

وقال بعضهم الأولى أن يقال لهذه القصيدة برأة، لأن المؤلف بريء بها، والتي حقها أن يقال لها بردة هى قصيدة (بانت سعاد) لكعب ين زهير[11].

[11] - راجع حاشية الباجوري على البردة

أما سبب انشاؤها فقد ذكر الشيخ خالد الأزهري في شرحه للبردة ما نصه:

"قال ناظم هذه القصيدة سبب نظمي اياها أنني قد اصابني خلط فالج عجز عن علاجه كل معالج، اذ أبطل نصفي وتحير فيه وصفي، فلما أيست من نفسي، وقاربت حلول رمسي، تذكرت في ساعة سعيدة أن أصنع قصيدة في مدح خير البرية، فصح العزم وصدقت النية، وشرعت في امتداح المصطفى ورجوت به البرء والشفا، فأعانني ربي ويسر على طلبي، فلما ختمتها رأيت في منامي المصطفى التهامي، قد أتى إليّ، ومر بيده المباركة عليّ، فعوفيت لوقتي وعدت لما كان من نعتي.

وقال أحد الأدباء.

ان البوصيري أنشد قصيدة البردة مستأنسًا بقصيدة ابن الفارض التي مطلعها:

هل نار ليلى بدت ليلًا ندى سلم أم بارق لاح في الزوراء فالعلم

ويستشهد على هذا بعقد موازنة بين بعض أبياتها.

فمثلًا قول ابن الفارض :

يا لائمًا لامني في حبهم سفهًا كف الملام فلو أنصفت لم تلم

تأثر به البوصيري في قوله:

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعًا جرى من مقلة بدم

ولكني لا أسلم بما ذهب إليه هذا الأديب من تأثر البوصيري بقصيدة ابن الفارض فربما يكون هذا من باب توارد الخواطر.

ونقل عن صاحب البردة رضي الله عنه أن الصاحب بهاء الدين (وزير الملك الظاهر) قد استدعاه وقال له: انشدني القصيدة التي مدحت بها النبي عليه السلام وأقسم ألا يسمعها إلا قائمًا مكشوف الرأس وقد كتبها له بيده فلم تزل عنده يتبرك بها ويقرؤها في الملمات حتى مات فورثها ابنه فخر الدين من بعده.

وقد تداوى بها قوم فشفاهم الله، لأنها في مديح ذات تحبها كل ذات.

المعاني التي تحتوي عليها البردة:

يبدأ البوصيري قصيدته البردة الخالدة، بمطلع جميل وهو الغزل على عادة العرب، فذكر دمعه يجري ممزوجًا بالدم لأنه تذكر أحبابه المجاورين لذي سلم، وزاد في وجده هذه الريح التي تهب من ناحية الأحباب وهذا البرق الذي يومض في الظلام، يذكر أنه كلما طلب من عينيه أن تكفا عن الدمع كان هذا الطلب مدعاة لإنهمار الدمع وكلما طلب من قلبه أن يفيق استبد به الشوق، وهام في حبه.

يعقب أن الحب لا يمكن كتمانه وأن له دلائل تفضحه، يقول البوصيري:

ان النصح واللوم على الهوى العذري لا يجدي ولا يسمع لأن المحب عادة في صمم عن العزل.

محضتني النصح لكن لست اسمعه   ان المحب عن الغزال في صمم

ثم ينتقل إلى الحديث عن النفس وهواها.

فيتذكر أنه شاب، ولكن نفسه من جهلها لم تتعظ بهذا الشيب ولا بكبر السن وأنه يحن إلى كل فعل جميل في شبابه يستقبل به شيبه وهرمه فلا يجده، لهذا يطلب معينًا على نفسه يساعده على كبح جماحها ورد غوايتها، ويذكر حكمة طيبة، هى أن المعاصي والإكثار منها لا تشبع النفس ولا تكسر شهواتها، بل تزيدها ميلًا إلى الرغبة فيها.

ويذكر أن علاج نفسه لا يكون إلا بكفها وردها عن غوايتها، فهى كما يقول في بيته الخالد:

والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على   حب الرضاع وإن تطعمه ينفطم

فهو يشبه النفس بالطفل الرضيع عندما يهمل فإنه يشب على ما تعوده، ثم يحذر من إتباع الهوى لأن اتباعه يهلك صاحبه ويلحق به الخزى والعار.

فهو يطالب بمخالفة النفس والشيطان وعصيانهما، لأنهما خصماه اللذان يريدان به الضرر.

وإلى هذا المعنى يشير البوصيري في قوله:

وراعها وهى في الأعمال سائمة	وان هى استملت المرعى فلا تسم
واخش الدسائس من جوع ومن شبع	فرب مخمصة شر من التخم
واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت	من المحارم والزم حمية الندم
وخالف النفس والشيطان واعصهما	وان هما محضاك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصمًا ولا حكمًا	فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

وبعد أن ينتهي الشاعر من التحذير من شرور النفس ومن هواها يختم هذا الجزء بأبيات في منتهى الروعة يبين فيها الأسى والحسرة لأنه لم يستعد للموت ولم يعد الزاد اللازم لهذا السفر الطويل وهذه الرحلة المضنية فيقول:

أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به	وما استقمت فما قولي لك استقم
ولا تزودت قبل الموت نافلة	ولم أصل سوى فرض ولم أصم

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الغرض الأصلى من القصيدة وهو المدح فيمدح الرسول ويسهب في هذا المديح ويبدأ الشاعر هذا المديح بقوله:

ظلمت سنة من أحيي الظلام إلى	أن اشتكت قدماه الضر من ورم

فيبين أنه ظلم نفسه بهذا المديح لأنه ليس أهلًا له، ولأن هذا المديح منزلة لا يصل إليها إلا المتقربون إلى الله والواصلون، وكأنه بهذا يخجل من نفسه حتى يرجع إلى الماضي فيحاسب نفسه على ما اقترفته من آثام ثم يبين أن الرسول عليه السلام تعبد واقفًا وقتًا طويلًا من الليل حتى اشتكت قدماه الضر من شدة الورم، وصبر على الجوع لا من فقر، فقد كانت الجبال الشم المرتفعة العالية تراوده أن تكون له ذهبًا فأبى لأنه يرتفع بمبدئه فوق كل الماديات، وكانت قيمه ومثله العليا تسيطر عليه، وتسمو به فوق ظل الحياة الزائل، فإن المال ظل زائل وعرض خائل وعارية مستردة، والأهل والمتاع كذلك أيضًا.

وما المال والأهلون إلا ودائع ولابد يومًا أن ترد الودائع

وحقًا تبقى المبادئ وتخلد القيم بينما يذهب المال وتفنى الشخصيات.

حب الرسول في نفس البوصيري:

ويذوب حب الرسول في نفس البوصيري وتنساب عاطفة هذا الحب في قلبه فيفيض أيما إفاضة في ذكر صفات الرسول عليه السلام.

ومجال القول في الرسول وصفاته ذو سعة لا يحصره بيان ولا يفي لسان، ومهما لن يستطيع أن يوفي الرسول حقه وخاصة في تعداد مناقبه وبيان شمائله فالرسول عليه السلام نعم الحبيب الذي ترجى شفاعته، ونعم الإنسان البار، فلا أحد أبر في القول منه ولا في العمل.

والرسول عليه السلام أتى بالدين الحنيف، وكل من استمسك بدينه فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

استمع إلى البوصيري اذ يقول:

نبينا الآمر الناهي فلا أحد   أبر في قول: لا منه ولا نعم
هو الحبيب الذي ترجى شفاعته   لكل هول من الأهوال مقتحم

ثم يمضي البوصيري في المدح فيبين أن الرسول جاء متممًا لرسالة الرسل كما يشير إلى ذلك الحديث الشريف:

"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"

ويكفيه فخرًا قول الله عز وجل (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين).

وقوله تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا)، ولا عجب في هذا فقد أتم الله برسالته للرسالات وبلغ الأمانة، وعمت رسالته الأنس والجن فهو حبيب الله وصفيه، وتتضح عظمة الرسول وقربه من الله سبحانه في قول البوصيري:

دعا إلى الله فالمستمسكون به مستمسكون بحبل غير منفصم

فاق النبيين في خلق وفي خلق ولم يدانوه في علم ولا كرم

وكلهم من رسول الله ملتمس غرفًا من البحر أو رشفًا من الديم

وواقفون لديه عند حدهم من نقطة العلم أو من شكله الحكم

فهو الذي تم معناه وصورته ثم اصطفاه حبيبًا بارئ النسم

منزه عن شريك في محاسنه فجوهر الحسن فيه غير منقسم

وكان يمكن للبوصيري أن يعدل عن قوله فاق النبيين ويقول أنه أكمل رسالة الأنبياء الذين سبقوه وأتم رسالتهم ولنا أن نغتفر له هذا الغلو لأن المقام مقام المدح ولأن البوصيري سيطر حب الرسول على قلبه، واغرم به لدرجة عالية ملكت عليه فؤاده وتفكيره.

وقد أخطأ البوصيري خطأً فنيًا آخر حين قال:

منزه عن شريك في محاسنه فجوهر الحسن فيه غير منقسم

ولنا أن نحمل هذا على سبيل المغالاة في الشعر، وإلا فسيدنا يوسف كان في منتهى الوسامة والجمال تلك الوساطة التي جعلت امرأة العزيز تقع في حبه، وترغمه على أن يفعل ما تأمره به لولا أن عصمه الله وعلى كل حال فسيدنا يوسف كان نظيره. وما ثبت لأحد المثلين يثبت للآخر.

واذا تميز ببعض الميزات فإن ذلك على سبيل التمام والكمال، وقد أخطأ البوصيري تاريخًا حين قال:

وكلهم من رسول الله ملتمس غرفًا من البحر أو رشفًا من الديم

وذلك أن الرسل كانوا قبله ولم يجيء أحد منهم بعده ولنا أن نعتبر هذا الكلام غير خطأ، لأن الرسل مخلوقون من نوره عليه السلام كما ورد في الآثار.

ويمضي البوصيري في المديح فيبين أن كل ما تقوله عن الرسول فهو جيد ومقبول، وحقًا أن فضل الرسول الأعظم ليس له حد حتى يصفه كاتب أو شاعر ثم يشبه الرسول عليه السلام بالشمس تظهر صغيرة أمام كل إنسان يراها من بعد، ولكن من يقترب منها لا يمكنه النظر إليها وإلا كلت عيناه وتعبت كذلك نحن لا نرى عظمة الرسول لبعدها عنا.

والبوصيري في مدحه للرسول يلقي اضواء على عظمته ورفعة شأنه فيشبهه تشبيهًا آخر بالبدر في الإشراق، ويشبهه تشبيها آخر بالبحر ورابعًا بالدهر في الرسوخ والقدم.

استمع إلى البوصيري اذ يقول:

كالشمس تظهر للعينين من بعد صغيرة تكل الطرف من أمم
أكرم بخلق نبي زانه خلق بالحسن مشتمل بالبشر متسم
كالزهر في شرق والبدر في شرف والبحر في كرم والدهر في همم

ثم يبلغ البوصيري حد الروحة عندما يذكر أن الرسول عليه السلام وأن كان كان فردًا في حقيقته إلا أنه عسكر في جلاله وهيبته.

كأنه وهو فرد في جلالته   في عسكر حين تلقاه وفي حشم

ويرى قوله الكريم لؤلؤًا مكنونًا في صدف المنطق والابتسامة الحلوة:

كأنما اللؤلؤ المكنون في صدف   من معدني منطق منه ومبتسم

ويبين أن التراب الذي ضم أعظم الرسول صلى الله عليه وسلم أطيب من كل طيب.

لا طيب يعدل تربًا ضم أعظمه   طوبى لمنتشق منه وملتثم

وأن السعادة كلها لمن يلثم تراب قبره ويقبله بفمه، ويستنشق منه لما فيه من بركة لا تعدلها بركة.

ويذكر آيات الكون التي صحبت ولادته عليه السلام بالتفصيل آية آية فهذا ايوان كسرى، يبيت متصدعًا، ونار المجوس تخمد أنفاسها وصالحوا الجن يهتفون مستبشرين بقدومه، والنجوم تسطع والأشجار تسجد شاكرة ربها على مجيء هذا النور الإلهي وسطوعه بين أبناء البشر – وشياطين الشر تولي منهزمة بعضها أثر بعض، ويتبع بعضها بعضًا.

ويتبع البوصيري سيرة المصطفى عليه السلام، ذاكر أهم احداثه، فيذكر تظليل الغمام له، ليمنع حر الهجير، وانشقاق القمر، وما حوى الغار من آيات، ويختم هذا الحديث عن الغار بالبيت الرائع الذي جرى مجرى الأمثال:

وكآية الله أغنت عن مضاعفة　　　من الدروع وعن عال من الأطم

ثم ينتقل إلى الدعاء والتوسل، فيذكر أن الرسول عليه السلام كان له في كل نازلة تتزل نعم العون ونعم المجير، وأنه كان يوحي إليه في الرؤيا بكل خير، وكانت يده الشريفة تبرئة من كل مرض يلم بصحابته.

وأن هذا ليس غريبًا فكم أبرأت يد الرسول مريضًا، وكم حققت أملًا وكم حلت البركات والخيرات بدعائه عليه السلام.

ما سامني الدهر ضيمًا واستجرت　　　إلا ونلت جوارًا منه لم يضم
ولا التمست غني الدارين من يده　　　الا استلمت الفدى من خير مستلم
لا تنكر الوحي من رؤياه ان له　　　قلبًا اذا نامت العينان لم ينم
وذاك حين بلوغ من نبوته　　　فليس ينكر فيه حال محتلم
كم أبرأت وصبا باللمس راحته　　　وأطلقت اربًا من رمقه اللمم

ثم يذكر البوصيري ان آيات الرسول كلها على علم فهى ظاهرة كالشمس في وضح النهار وأن ذكره لهذه الآيات والمعجزات الخارقة للعادة في قصيدة البردة لا يزيدها وضوحًا أو اظهارًا وان كان ينظمها في شعره، وأن المديح مهما بلغ لا يتطاول إلى ما فيه عليه السلام من كرم الأخلاق والشيم.

دعني ووصفي آيات له ظهرت　　　ظهور نار القرى ليلًا على علم
فالدر يزداد حسنًا وهو منتظم　　　وليس ينقص قدرًا غير منتظم
فما تطاول آمال المديح إلى　　　ما فيه من كرم الأخلاق والشيم

ثم ينتقل إلى القرآن الكريم معجزة الله عز وجل الخالدة على مدى الأعوام فيصفها وصفًا جميلًا ويذكر بلاغة القرآن التي عجز الأدباء وهم أرباب الفصاحة أن يأتوا بمثله.

ويبين أن هذه الآيات ردت معارضيها ومقلديها بخيبة أمل، كما يرد الغيور يد الجاني عن أن تمس مقدسًا أو محرمًا، استمع إلى البوصيري اذ يقول في هذا الصدد:

دامت لدينا ففاقت كل معجزة　　من النبيين اذ جاءت ولم تدم

ردت بلاغتها دعوى معارضها　　رد الغيور يد الجاني عن الحرم

لها معان كموج البحر في مدد　　وفوق جوهره في الحسن والقيم

وأن آي القرآن الكريم لا تعد عجائبها ولا تحصى، وتقر بها عين قاريها ويبيض وجهه ويطمئن قلبه لأن تلاوة القرآن لها حلاوة لا تعدلها حلاوة، ولها بركة لا تعدلها بركة لما لهذه التلاوة من روحانية تقرب العبد من ربه عز وجل.

وهى آية كبرى لمن يعتبر، ونعمة عظمى لمن يغتنم، ومنكر فضلها أعمى العين سقيم القلب والذوق.

فما تعد ولا تحصى عجائبها　　ولا تسام على الاكثار بالسأم

قرت بها عين قاريها فقلت له　　لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم

لا تعجبن لحسود راح ينكرها　　تجاهلًا وهو عين الحاذق الفهم

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

ويختم القول عن القرآن الكريم ميممًا وجهه شطر الرسول الكريم، فيذكر الإسراء وتقديم الأنبياء للرسول الكريم في موقف كان فيه صاحب العلم.

سريت من حرم ليلًا إلى حرم كما سرى البدر في داج من الظلم
وبت ترقى إلى أن نلت منزلة من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم
وقدمتك جميع الأنبياء بها والرسل تقديم مخدوم على خدم

ثم يذكر عروجه عليه السلام وتميزه على جميع الرسل بهذا الفضل، وما نال المصطفى عليه السلام من رتب في هذه الليلة الشريفة وما أدركه من نعمة.

وفرح المسلمون بهذا الفضل الذي طفهم بفضل كرامة الرسول حين دعاه ربه وشرفه بالعروج إلى السموات السبع، استمع إلى البوصيري اذ يقول:

لما دعى الله داعينا لطاعته بأكرم الرسل كنا أكرم الأمم
راعت قلوب العدا أنباء بعثته كنبأة أجفلت غفلًا من الغنم

على أننا يجب أن نشير بصفة خاصة إلى أن البوصيري تأثر بالفلسفة والتصوف في هذه القصيدة وغيرها تأثيرًا واضحًا قد حد من خياله بعض الشيء، استمع إلى البوصيري اذ يقول:

آيات حق من الرحمن محدثة   قديمة صفة الموصوف بالقدم

فلاشك في أن البوصيري انتزع هذا المعنى من النظرية الكلامية، التي طال فيها الجدل وامتحن بها العلماء وهى:

هل القرآن قديم أم محدث.

وما كان اغنى البوصيري عن ذلك وهو يتعمق في وصف جمال القرآن وجلاله.

ثم قال:

دامت لدينا ففاقت كل معجزة   من النبيين اذ جاءت ولم تدم

فهذا معنى انفرد به القرآن عن سائر المعجزات التي وقعت للأنبياء، واستمتع إلى البوصيري في قوله:

محكمات فما تبقين من شبه   لذي شقاق وما تبغين من حكم
ما حوربت قط الاعاد من حرب   أعدى الأعادي إليها ملقى السلم
ردت بلاغتها دعوى معارضها   رد الغيور يد الجاني عن الجرم

هذه كلمة صدق ووصف، حتى في تسجيل اعجاز القرآن الكريم، للعرب بعد أن تحداهم الرسول.

قال تعالى:

"قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا"

ولذلك نجد أن البوصيري حين تعرض لوصف معاني القرآن والإفصاح عن سحر بيانه، وأنك كلما تلوته ازددت إعجابًا بأسراره، ولم تطف بك سآمة ولا ملل، فهو لا تبلى جدته ولا تخلق ديباجته، ولا تفنى عجائبه، فقد أبدع في منتهى الإبداع، وحق له أن يبدع وأن يصول ويجول في هذا الميدان.

استمع إليه اذ يقول:

لها معان كموج البحر في مدد	وفوق جوهره في الحسن والقيم
فما تعد ولا تحصى عجائبها	ولا تسام على الإكثار بالسأم
قرت بها عين قاريها فقلت له	لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم
ان تتلها خيفة من حر تار لظى	اطفأت حر لظى من وردها الشيم
كأنها الحوض تبيض الوجوه به	من العصاة وقد جاءوه كالحمم

ثم ختم هذا الوصف بمثل مقنع من الأمثال فيه تقريع للمكابرين وتبكيت للمنكرين فقال:

لا تعجبن لحسود راح ينكرها	تجاهلًا وهو عين الحاذق الفهم

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم، ثم يتحدث البوصيري عن الجهاد، ويعدد مناقب الرسول والصحابة في هذه الغزوات الخالدة، ويتمثل ذلك في قوله:

ما زال يلقاهم في كل معترك   حتى حكوا بالقنا لحمًا على وضم

إلى أن يقول:

كفاك بالعلم في الأمى معجزة   في الجاهلية والتأديب في اليتم

ثم يختم القصيدة بالإستغفار من ذنوب عمر طويل وكيف أطاع نفسه وحصل على الآثام التي أعقبها روح الندم على ما فات، ويبين مدى الخسارة التي خسرها حين باع الآخرة وهى الحياة الباقية بالحياة الدنيا وهى الحياة الفانية وهذا بيع في منتهى الغبن والظلم، وعاطفة الشاعر هنا عاطفة حزينة فيها الأسف كل الأسف والحزن كل الحزن استمع إليه اذ يقول:

خدمته بمديح استقيل به   ذنوب عمر مضى في الشعر والخدم
اذ قلداني ما تخشى عواقبه   كأنني بهما هدي من النعم
اطعت غيَّ الصبا في الحالتين وما   حصلت الا على الآثام والندم
فيا خسارة نفسٍ في تجارتها   لم تشتر الدين بالدنيا ولم تسم
ومن يبع آجلًا منه بعاجله   ين له الغبن في بيع وفي سلم

وعلى الرغم من أن الشاعر قد اقترف هذه الذنوب، فإنه يأمل في الرسول، ويبين أن الرسول عليه السلام اذا لم يأخذ بيده يوم الحشر، فإن قدمه ستزل إلى قرار وبئس القرار، ولكنه يستدرك فيستبين أن الذي يحرم من مكارم الرسول شخص لا يرجى منه الخير، ولذلك وقف أفكاره على مدائحه.

ان آت ذنبًا فما عهدي بمنتقض	من النبي ولا حبلي بمنصرم
فإن لي ذمة منه بتسميتي	محمدًا وهو أوفى الخلق بالذمم
إن لم يكن في معادي آخذًا بيدي	فضلًا والا فقل يا زلة القدم
حاشاه ان يحرم الراجي مكارمه	أو يرجع الجار منه غير محترم
ومنذ ألزمت أفكاري مدائحه	وجدته لخلاصي خير ملتزم

ولم يفت البوصيري في هذا الختام أن يناجي الرسول الأعظم حبيب رب العالمين ويمدحه، ويبين أنه ليس لديه من يعتمد عليه عند حدوث الشدائد سواه، فهو مغتفر إليه ولن يضيق به جاه الرسول عليه السلام، فهو عليه السلام جواد، وعلمه غزير لا حد له، ثم يخاطب الشاعر نفسه ويهون الخطب على نفسه فيطلب من نفسه في الأبيات الا تيأس من غفران الذنوب مهما كانت عظيمة فإن هذه الذنوب مهما كثرت وكبرت فهى بالنسبة لرحمة الله كالصغائر ويطلب من ربه جل جلاله بأن يحقق رجاءه في الغفران ولا يخيب أمله فيه، ويسأله أن يلطف به في الدارين دار الدنيا ودار الآخرة، ويختم هذا الدعاء بالصلاة على النبي عليه السلام، وذلك حيث يقول:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم
ولن يضيق رسول الله جاهك بي اذا الكريم تجلى باسم منتقم
يانفس لا تقنطي من زلة عظمت ان الكبائر في الغفران كاللمم
لعل رحمة ربي حين يقسمها تأتي على حسب العصيان في القسم
يا رب واجعل رجائي غير منعكس لديك واجعل حسابي غير منخرم
والطف بعبدك في الدارين أن له صبرًا متى تدعه الأهوال ينهزم
وأذن لسحب صلاة منك دائمة على النبي بمنهل ومنسجم
ما رنحت عذبات البان ريح صبا وأطرب العيس صادق العيس بالنغم

وهكذا نجد أن البوصيري قد نقلنا في البردة إلى عدة أجواء، وما ذلك إلا لأنه شاعر واسع الأفق، يحلق في أجواء الخيال، ويسبح في عالم الروحانيات ليخرج لنا قطعة أدبية ممتازة، خالدة على مدى الأيام.

ولنا أن نعتبر البوصيري سيد المادحين أمام المدائح النبوية بلا منازع، وقد سار على طريقة عصره من الأكثار من الجناس والطباق والاقتباس، والطباق – هو الجمع بين الشيء وضده في الكلام – والجناس هو جملتين أو أكثر في الآخر، والاقتباس هو الاستشهاد من القرآن ليزيد الأسلوب، وذلك أنه ابتداء من العصر العباسي انحدرت الكتابة والشعر من الاهتمام بالمعنى إلى الاهتمام باللفظ والصياغة، وذلك لا يعارض اطلاقًا أن البوصيري قال المدائح النبوية بالطبع والسليقة لأن كثرة المحسنات كانت هى الطبع الغالب على كل الشعراء والكتاب في هذا العصر.

هذا فضلًا على أن البوصيري أتى في قصائده بالمعاني الجمة الممتازة وصاغها صياغة جميلة، ولو كان البوصيري من كتاب الصناعة، ولم يكن من كتاب الطبع والسليقة لقلت هذه المعاني، ولما أتت بهذه الغزارة وتلك الكثرة.

ولنا أن نسجل للبوصيري بكل إعجاب، أنه لم يشتغل بالزخرفة ولا بالعناية بالتصوير البياني من تشبيهات واستعارات وكنايات وان وجدنا ذلك بكثرة في شعره فعن غير قصد.

لأن العناية بالصور البيانية والمحسنات البديعية، كانت طبعًا سائدًا لشعراء ذلك العصر.

والبوصيري يتمشى مع روح عصره، ومع شعراء زمنه.

الباب الرابع
في تقليد البردة

تعتبر قصيدة البردة دستورًا للشعراء ولكل شاعر يريد أن ينهض برسالته إلى أجمل الغايات، فممن قلدها الشاعر النابه الذكر رب السيف والقلم البارودي وقد قلدها عن أصالة وجدارة.

وممن قلدها أبو بكر بن حجة الحموي الذي بذل جهودًا مضنية في معارضة البردة فجاءت قصيدته نسخة باهته من البردة مثلها مثل الصورة التي تتطبع على ورق النشاف، وبحسبي أن أورد للقارئ نموذجًا من قصيدة أبي بكر الحموي في معارضته للبرودة كتأييد لما نقول.

يقول الحموي:

فعلمه وافر والزهد ناسبه ... وحلمه ظاهر عن كل مجترم
آدابه تمت لا نقص يدخلها ... والوجه تكميله في غاية العظم
قالوا هو البدر والتفريق يظهر لي ... في ذاك نقص وهذا كامل الشيم
والبدر في التم كالعرجون صار له ... فقل لهم يتركوا تشبيه بدرهم

لا شك أن من يقرأ هذه الأبيات يجد أن فكرها تدور حول مدح النبي عليه السلام بالعلم والزهد والأدب وجمال الوجه وهى أفكار ساذجة لا سمو فيها، كما يجد أنها تخلو من حرارة العاطفة مما أدى إلى ضعف الصور

البيانية وجعلها معيبة مستكرهة وإلى ضعف الخيال، كما أن التقليد ظاهر فيها، فالتقليد لا عن أصالة والتقليد لا تظهر فيه شخصية الحموي بل أمحت واختفت خلف شخصية البوصيري في بردته وهذا التقليد الممسوخ أدى إلى وقوع الشاعر الحموي في ورطة وهى تكلفه أنواع ألوان البديع ليزين قصيدته وليحاكي استاذه البوصيري ويبين أنه وصل في البراعة إلى حد يقاربه ولكن شتان، ما بين الشاعرين.

أضف إلى ما تقدم شيوع التعبيرات والألفاظ المبتذلة في أقدس مكان وهو مدح الرسول، فجاءت الألفاظ والتعبيرات متنافرة قلقة لأنها لم توضع في موضعها الصحيح ومن أمثلة ذلك قوله مجترم، وقوله تكميليه في غاية العظم وأدى كل ما تقدم إلى الغموض الذي ظهر بوضوح في البيت الثالث والرابع.

كما أن أبيات الحموي فقدت أهم ميزة في الشعر وهو الإنسجام الصوتي الذي هو من أهم مصادر الموسيقى العربية وحق لنا أن نعدها نظمًا لا شعرًا.

وكما قلدها شاعرنابه الذكر مثل البارودي قلدها شاعر مغمور من دمنهور إلا أنه لا يقل في شعوره وشاعريته وورعه وصوفيته عن الأمام البوصيري ذلكم هو الشاعر علي مبروك قضيب.

وعلى الرغم أن هذا الشاعر ظل مغمورًا إلا أنه زاد على البردة من المعاني العالية التي عزت على البوصيري نفسه، وقد سار ذلك الشاعر على

نهج جديد وهو تخميس البردة واذا كان البيت الشعري يتكون من شطرتين فإن التخميس يتكون من خمس تنسجم مع معنى البيت وتتفق في الوزن والقافية، وسنضرب لك عدة أمثلة لتوضيح ذلك:

يقول البوصيري:

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعًا جرى من مقلة بدم

ويقول الأستاذ قضيب في تخميس هذا البيت:

اشرح لبردة خير الخلق يا قلمي وخمس البيت للمشهور كالعلم
وكفكف الدمع يا مضني ولا تهم امن تذكر جيران بذي سلم

لا شك أنه جمع فأوعى اذ بين الغرض من تخميس البردة وهو شرحها فسار بذلك مسرى التواضع الكاذب، لأنه لم يشرحها فقط بل أضاف إلى معانيها السامية معان دونها البوصيري، ولا يمكنك بحال من الأحوال أن تميز بين ما نظم البوصيري وما نظم قضيب من سلامة التركيب وجزالة اللفظ وسمو المعنى اذ كنت لم تقرأ البردة ولم تحفظها، ولا عجب أن يقول أحد الأدباء في هذا الصدد.

"ولو كنت ممن يؤمنون بتقمص الأرواح ما خالجك شك في أن البوصيري قد عاد إلى الحياة ليكمل عمله الجليل الخالد ويكون بحق خليق بهذه التسمية الشريفة".

ثم ينتقل الأستاذ قضيب إلى البيت الثاني من البردة فيخمسه يقول البوصيري:

ام هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من اضم

حقًا لقد هبت الريح وأومض البرق في الآفاق فهاجمت الذكرى وعصفت بالفؤاد وأضنت الوجدان، فلا عجب ان يقول قضيب في تخميس هذا البيت.

اهكذا تفعل الذكرى بعاطفة
لما تمر بصب مر عاصفة
أم هيج الوجد منه كل كامنة
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة
وأومض البرق في الظلماء من اضم

واذا وجدنا أن البوصيري قد نبعت بردته من بحر روحي صرف وكان أمامًا لمدرسة الشعراء المتقدمين في عصره.

فقد وجدنا شاعرًا آخر جمع بين منهج القدماء ومنهج المحدثين وسار على خطة جديدة في الشعر وقلد البردة وتناول أفكارها وزاد عليها في شيء من الأصالة والقوة الروحية والمعاني القومية ذلكم هو أمير الشعراء أحمد شوقي ذلك الشاعر القدير المبدع في قصيدة سماها "نهج البردة" تلك القصيدة الذائعة الصيت في مدح الرسول وأصحابه الكرام ومدح الشريعة الإسلامية السمحاء.

وقد قيل: أن شوقي حين انطلقت عبقريته بقصيدة نهج البردة إنما كان يعارض البوصيري ولكنه عف عن القول، أنه يعارض الأمام الجليل، وجعل نفسه تابعًا لصاحب البردة اذ يقول:

المادحون وأرباب الهوى تبع   لصاحب البردة الفيحاء ذي القدم
الله يشهد اني لا أعارضه   من ذا يعارض صوب العارض العرم
وإنما أنا بعض الغابطين ومن   يغبط وليك لا يذمم ولا يلم

على أننا اذا دقننا النظر في البردة ونهجها نجد تشابهًا كبيرًا بينهما واطارًا واحدًا من الشعر في أسلوبه ووزنه وقافيته والمعاني التي دارت حولها، لذلك وجدت من الخير بيان علة هذا التشابه وهذا الجري على نمط واحد في وزن القصيدة وأبياتها ومعانيها وهذا يستدعي بطبيعة الحال أن نعرض إلى عقد جزء خاص من هذا الكتاب للموازنة بين القصيدتين فخصصت الباب الأخير من هذا الكتاب لهذه الدراسة والموازنة وسيأتي بيانه بعد قليل.

وقد تعرض الأمام البوصيري لمديح الرسول في قصائد أخرى غير قصيدة البردة منها:

1- قصيدته الهمزية العصماء التي مطلعها:

كيف ترقى رقيك الأنبياء   يا سماء ما طولتها سماء

2- ومنها قصيدة أخرى نظمها على وزن قصيدة بانت سعاد ومطلعها:

إلى متى أنت باللذات مشغول

وفيها يقول:

ان رمت أعظم آيات وأكملها   كفاك من محكم القرآن تتزيل

ومكتوب عليه مكرر، ولست أدري لمن هذه الكتابة أهى للأمام البوصيري أم لغيره.

وأن المتصفح لديوان البوصيري يجد أن معظمه في المديح النبوي وشعره فيه أقوى من غيره، وأجزل وأعظم.

ولا يعيب الأمام البوصيري ولا ينقص من قدره أنه كتب بيتًا ثم شطبه، فالحقيقة التي لا تقبل نقاشًا أن كثيرًا من الأدباء يخرجون تآليفهم أول الأمر على شكل ثم يزيدون عليها أو ينقصون.

خذ لذلك مثلًا كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر له نسختان نسخة جديدة في **80** صفحة مجلدة ونسخة قديمة في سبع وخمسين.

وخذ مثلًا آخر كتاب وفيات الأعيان، فقد حدث له ما يشبه ذلك.

وولمؤلف العذر فقد يكون سبقه القلم أو خانته الذاكرة ثم استدرك ما فاته.

الباب الخامس
موازنة بين البردة ونهجها

يجدر بنا أن نلم المامة يسيرة بقصيدة نهج البردة التي قالها أمير الشعراء أحمد شوقي قبل الدخول في الموازنة ثم نوازن بين القصيدتين موازنة موضوعية فنقول

إن مطلع هذه القصيدة الغزل اذ شبب شوقي كما شبب البوصيري فالمطلع واحد تقريبًا يقول شوقي:

ريم على القاع بين البان والعلم　　　أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

فشبه حبيبته بالغزال في مكان بين الشجر والجبال حيث استباح دمه في وقت يمنع فيه ذلك شرعًا، ثم ينتقل إلى الحكم والمواعظ انتقالًا روحيًا صوفيًا ينتهي فيه عند قوله.

ان جل عن الغفران لي أمل　　　في الله يجعلني في خير معتصم
وان تقدم ذو تقوى بصالحه　　　قدمت بين يديه عبرة الندم

ثم ينتقل إلى الغرض الأصلي الذي قيلت فيه القصيدة وهو مدح الرسول الأعظم، ثم تكلم عن معجزات الرسول وفصلها معجزة اثر معجزة، ومما يسترعى النظر في هذا الصدد أن أمير الشعراء قد أبدع كل الإبداع حين تحدث عن الغار استمع إليه يقول:

سائل حراء وروح القدس هل علما　　مصون سر عن الإدراك منكتم

كم جيئة وذهاب شرفت بهما　　بطحاء مكة في الاصباح والغسم

ووحشة لابن عبد الله بينهما　　أشهى من الأنس بالأحباب والحشم

يسامر الوحي فيها قبل مهبطه　　ومن يبشر بسيمي الخير يتسم

فهل بعد ذلك روعة في التصوير ؟ .. لا والله، كبرت كلمة تخرج من أفواه المعارضين له، ان يقولون إلا كذبًا، ثم استمع إلى شوقي حين يتحدث عن الغار حديثًا آخر في منتهى الروعة يبدؤه بقوله.

سل عصبة الشرك حول الغار سائمة　　لولا مطاردة المختار لم تسم

إلى قوله:

تواريا بجناح الله واستترا　　ومن يضم جناخ الله لم يضم

كما أبدع أثناء حديثه عن حادث الهجرة حين صب الشاعر جام غضبه على المشركين فيبين أن الأرض تلعنهم، ويشبههم في أدبارهم ونكوصهم على أعقابهم خائبين بدفع الباطل وادحاضه.

والشاعر في هذه الأبيات يصف حادث الهجرة وصفًا دقيقًا فيبين أن الرسول حين علم أن قومه قد جمعوا أمرهم على قتله هاجر هو وأبو بكر إلى غار حراء واختبأ فيه.

فخر العرب:

ويقارن شوقي بين العرب وأهل روما أنه اذا افتخرت "روما" بقضائها وقوانينها، فإنه يحق للعرب أن يفخروا بشعرائهم وخطبائهم.

ويبين أنه كان لقدماء المصريين أن يفاخروا بمدينتهم التي كان من أسمى مظاهرها هذه الأهرامات الثلاثة بالجيزة هرم خوفو، وخفرع، ومنقرع فإنه يحق للعرب أن يفخروا بدار السلام "بغداد".

وهنا يحلو لشوقي أن يفصل الكلام في ذلك تفصيلًا، فيبين أن دار الشرائع "روما" التي اشتهرت بالأكاسرة والقياصرة.

لم تظفر بأمثال أعلام العرب في الفضل والعلم والعدل والحزم، فها هو هارون الرشيد أقام العدل في مملكته وقدم أهل العلم والفضل فاستقامات له أمور الملك وازدهرت في عهده الدولة واتسعت رقعة المملكة الإسلامية.

وها هو ذا المأمون الخليفة العادل الفاحص في علوم الحكمة صاحب مجالس المناظرات.

وها هو ذا المعتصم الذي فتح عمورية التي استعصت على من سبقه، وأذل الروم بهدم عمورية وهى حصن من حصونهم ودرع واق من دروعهم، وفتك بمن ظفر به من الرومانيين وفي أثناء هذا الحديث يتحدث الشاعر من الخلفاء الراشدين من باب ذكر الخاص بعد العام اهتمامًا بشأنهم وتيمنًا بذكرهم.

فيتكلم عن عمر الفاروق الذي فرق الله به بين الحق والباطل والذي اشتهر بالشدة في الحق والإسراع إلى أخذ الناس بالعدل والتقشف الذي حرم على ابنته أن تأكل الحلوى، كما حرم عليها التزين بالجوهرات الثمينة وهو خليفة المسلمين فياله من خليفة ما بعده خليفة.

ويتكلم عن عمر ين عبد العزيز ذلك الخليفة العادل الورع الزاهد في أمور الدنيا، وكان له في ميدان الزهد والتقشف ما لم يسمع من غيره.

ويتكلم عن علي بن أبي طالب أفصح الناس اذا خطب وأبلغهم اذا كتب أما علمه وفقهه فالبحر لا يدرك غوره.

ويتحدث عن عثمان بن عفان الذي جمع القرآن وفصل الأحكام ونور المحراب بإمامته ورضي النبي بمصاهرته، وفي حديثه عن هذا الخليفة يشير إلى أن جرحين لم يلتئما حتى الآن أولهما ذلك الجرح الذي أصاب الكتاب الكريم الذي كان يتلو فيه القرآن.

وثانيهما جرح الشهيد عثمان وذلك أن قتلة عثمان دخلوا عليه المترل وهو يتلو القرآن وضربوه بالسيف وهو صائم والمصحف في حجره وهو يقرأ فيه فوقع المصحف بين يديه وسال الدم عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم يتحدث عن بلاء أبي بكر في اعزاز كلمة الدين، ونصرة الرسول، ودعوته وسبقه إلى الإسلام، وأحب الناس إليه وكيف قضى على الفتنة التي

حلت بالمسلمين بعد وفاة الرسول من هؤلاء المتمردين الذين امتنعوا عن الزكاة وحاربهم حربًا لا هوادة فيها.

والشاعر لم يأت بهؤلاء الخلفاء مرتبًا لهم حسب الترتيب الزمني لمجيئهم، ولعله أراد أن يختم الحديث عنهم بالحديث عن شيخ الخلفاء أبي بكر الذي يحتاج الحديث عن مناقبه إلى سفر خاص.

وقد أخذت على شوقي أنه لم يفصل الكلام عن هذه الشخصية الإسلامية الفذة، ولم يعطها حقها من التكريم والمديح.

ولعل له عذرًا ونحن نلومه، فتعداد مناقب شيخ الخلفاء أشهر من أن تنوء بها الأسفار أو تقوم بتعريفها الأخبار أو لعله اتخذ من هذا الحديث عنه وسيلة للتوسل إلى الله، وإلى ذلك يشير الشاعر في الأبيات من قوله:

دع عنك روما وآثينا وما حوتا　　كل اليواقيت في بغداد والنوم

إلى قوله:-

وما بلاء أبي بكر بمتهم　　بعد الجلائل في الأفعال والخدم

ولم يئس شوقي أن يتلمس العذر للفاروق عمر عقب أن سمع بوفاة الرسول فأنكر موته، فيبين أن شدة المصيبة أذهلته وأي مصيبة أعظم من موت الرسول فلا لوم على عمر ولا تثريب فيما أصابه من ذهول وجزع وإلى هذا يشير شوقي:

يجادل القوم مستلًا مهنده   في أعظم الرسل قدرًا كيف لم يدم
لا تعذلوه اذا طاف الذهول به   مات الحبيب فضل الصب عن رغم

ولعل في تعبيره بكلمة "مات الحبيب" تؤكد هذا العذر ثم يعود إلى الصلاة على النبي وعلى آله.

وذلك في الأبيات من قوله:

يا رب صل وسلم ما أردت على   نزيل عرشك خير الرسل كلهم

إلى قوله:

الصابرين ونفس الأرض واجفة   الضاحكين إلى الأخطار والقحم

وفي نهاية المطاف يختم الشاعر قصيدته العصماء بالإبتهال إلى الله والتوسل والتضرع إليه، بالرسول الأعظم وصحابته الأمجاد أن يلطف بالمسلمين وأن يكشف عنهم ما نزل بهم من بلاء وما حل بأبنائهم من محن وأرزاء، ويدعو الله عز وجل أن يكشف عن أمة الإسلام كل ألوان الخسف والاستبداد.

وذلك في الأبيات من قوله:–

يا رب هبت شعوب من منيتها	واستيقظت أمم من رقدة العدم
رأى قضاؤك فينا رأي حكمته	أكرم بوجهك من قاض ومنتقم
فالطف لأجل رسول العالمين بنا	ولا تزد فوقه خسفًا ولا تسم
يا رب أحسنت بدء المسلمين به	فتمم الفضل وامنح حسن مختتم

على أننا بعد عقد هذه المقدمة الموجزة لقصيدة نهج البردة يحق لنا أن نعقد موازنة بين هاتين القصيدتين وهما من أمهات القصائد في المديح النبوي فنقول.

1ـ أسلوب القصيدتين.

وضع البوصيري وشوقي هذه المعاني في بحر من البحور الطويلة وهو بحر البسيط وقافيتها ميمية (مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن) لأنه البحر المناسب إلى المدح القريب للمعاني التي ألمت بكلا الشاعرين.

والبوصيري قد عرض قصيدته عرضًا مرتبًا منسقًا أما شوقي فقد فقد هذا الترتيب، فإذا قرأت البردة وجدت أنها كالمبوبة أبوابًا، أما نهجها فمخالف ذلك.

وأسلوب الشاعرين من النوع الرصين إلا أن البوصيري يختار الألفاظ السهلة المأخذ، أما شوقي فينتقي الألفاظ الجزلة التي يتناولها المثقفون ومن هنا نجد البوصيري يتأثر به جميع الناس، أما شوقي فلا يتأثر به إلا المثقفون وهم خاصة الناس.

2ـ **الخيال**:

يلاحظ أن البردة أقوى في الخيال وأجمل في الصوير من نهج البردة ذلك لأن البوصيري خلع على قصيدته الروحانية فاتجهت وجهة روحية صرفة.

أما نهج البردة فيغلب عليها التعمق في الأسلوب والتكلف في الألفاظ في بعض الأحيان.

حقًا إن شوقي موهوب حقق في قصيدته تصوير أحساساته تصويرًا صادقًا ونقل تجاربه في ألفاظ منتقاة موحية تنفذ في يسر إلى عواطف قارئيه وسامعيه فتثيرها، وقد حقق التناسق بين الكلمات بمراعاة التقديم والتأخير والحذف.

مثل:

جرحان في كبد الإسلام ما التأما   جرح الشهيد وجرح بالكتاب دمى

أي جرح دمى به الكتاب.

كما اختار شوقي من الألفاظ والأساليب أحفلها بالإيحاء وأقدرها على تصوير الإحساس حتى ينفذ الشاعر إلى أعماق النفوس فيثير مشاعرها وينقل إلينا تجاربه وانفعالاته ويكتسب اللفظ على الإيحاء من صلة بالمعاني المتصلة به حيث يبرزها واضحة دقيقة معبرة عن احساس الشاعر مثل قوله:

يطاطئ العلماء الهام أن نسبوا من هيبة العلم لا من هيبة الحكم
فيمطرون فما بالأرض من محل ولا بمن بات فوق الأرض من عدم
خلائف الله جلوا عن موازنه فلا تقيسن أملاك الورى بهم
وقوله: لا تقولوه اذا طاف الذهول به مات الحبيب فضل السب عن رغم

وانظر إلى جمال التصوير وحسن الختام في قوله:

يا رب هبت شعوب من منيتها واستيقظت أمم من رقدة العدم

أما الصورة الشعرية لدى البوصيري في بردته تعتمد على جزئيات مؤتلفة لو تأملنا كل منها على حده لنجد له دلالة ذهنية وعاطفة واضحة ولكنها باجتماعها ترسم لوحة شعرية نابضة بالحياة والجمال.

قال البوصيري:

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعًا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من أضم
فما لعينيك إن قلت اكففًا همتا وما لقلبك إن قلت استفق يهم
أيحسب الصب أن الحب منكتم ما بين منسجم منه ومضطرم
لولا الهوى لم ترق دمعًا على طلل ولا أرقت لذكر البان والعلم

اقرأ هذه الأبيات تجد فيها الخيال يتمثل في صورة حية، واقرأ قوله وهو يصور النفس اللاهية.

عدتك حالي لا سرى بمستتر عن الوشاة ولا دائي بمنحسم
محضتني النصح لكن لست أسمعه أن المحب عن العذال في صمم

ثم يسترسل في القصيدة فيرسم الصور حتى ينتهي إلى رسم صورة للنفس وما هى فيه من آلام وتناقض فيقول:

والنفس كالطفل ان تهمله شب على حب الرضاع وان تفطمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه ان الهوى ما تولى يصم أو يصم
وراعها وهى في الأعمال سائمة وان هى استحلت المرعى فلا تسم
وخالف النفس والشيطان واعصهما وان هما محضاك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصمًا ولا حكمًا فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

لقد اعتمد البوصيري في كلتا الصورتين على صور جزئية ليس لها تأثير وهى متفرقة ولكن اجتماعها ألف منها صورًا جميلة وأبرز لنا صورة شعرية تحس فيها غلبة الجانب الوجداني على الجانب الذكري كما تلمس ملاءمته الألفاظ للمعاني في كلتا الصورتين.

احساسات القصيدتين

بالنظر إلى القصيدتين وجدنا أنهما ينبعان من مصادر متقاربة ذلك أن البوصيري في بدء حياته طالما اتبع نفسه هواها، ولكن قدر له أن يتوب في آخر حياته فمرض مرضًا نذر لله إن شفي منه أن يعمل قصيدة في مدح الرسول فعمل البردة وضمنها احساسه بالألم مما فات من عمره، والاستغفار والبكاء والعودة إلى الله في النهاية قال البوصيري:

خدمته بمديح استقيل به	ذنوب عمر مضى في الشعر والخدم
اذ قلداني ما تخشى عواقبه	كأنني بهما هدى من النعم

ونرى شوقي بعد أن قضى حياته في شرب الخمر ومعاقرة الفتيان ومغازلة الفتيات وارتكاب المحرمات والليالي الحمراء التي طالما قضى حياته فيها أناب في آخر حياته، فعمل قصيدة يمدح بها الرسول مقلدًا البردة في وزنها وقافيتها فكان منبعها الاحساس بالندم والعودة إلى جانب الرسول والاستشفاع به إلى الله وهو من هنا يأمل في الله كل الأمل، أن يغفر له ذنبه ويعفو عما سلف منه.

ان جل ذنبي عن الغفران لي أمل	في الله يجعلني في خير معتصم
ألقى رجائي اذا عز المجير على	مفرج الكرب في الدارين والضمم
اذا خفضت جناح الذل اسأله	عز الشفاعة لم أسأل سوى أمم
وان تقدم ذو تقوى بصالحة	قدمت بين يديه عبرة الندم
لزمت باب أمير الأنبياء ومن	يمسك بمفتاح باب الله يغتنم

ومبعثها أيضًا ابتهال وتضرع إلى الله أن ينقذ المسلمين مما ألم بهم ويقليهم من العثرات التي وقعوا فيها، ومن هنا نجد العاطفة متحدة وأغلب الأبيات متشابهة، فالشعور في كلا القصيدتين شعور فياض صادر عن قلب يخفق بالحب في الله ورسوله، نادم على ما سلف منه، ومن هنا نجد أن هذا الشعور صادق وأن الصفات التي مدح بها كل منهما الرسول ليس فيها أي مبالغة ولا تكلف.

وان وجدنا لدى شوقي شيئًا كبيرًا وحظًا وفيرًا من الصيغة في انتقاء الألفاظ والعبارات فلا ضير عليه في ذلك حيث أن المعنى خارج عن طبيعته وسجية مبعثها الرجوع إلى الله والتوبة إليه والتكفير عما فاته وما اقترفه من معاصي، وفي غضون ذلك نلمح نفسية شوقي الشاعرة وخياله الصافي وأحاسيسه المرهفة تسطع علينا كما يسطع البدر في كبد السماء !!! وللدكتور محمد حسين هيكل في هذا الصدد رأي يوافقنى فيه على ما ذهبت إليه يقول الدكتور هيكل في مقدمة ديوان الشوقيات وقد يكون غلو شوقي أكثر وضوحًا في جانب اللغة منه في جانب المعاني فهو بمعانيه وصوره وخيالاته يحيط مما في القرب بكل ما يسيغه الطبع الشرقي – وترضاه الحضارة الشرقية أما لغته فتعمد إلى بعث القديم من الألفاظ التي نسيها الناس وصاروا لا يحبونها لأنهم لا يعرفونها ولعل سر ذلك عند شوقي أن البعث وسيلة من وسائل التجديد بل لقد يكون البعث أكثر وسائل التجديد نتيجة ما وجد من أرباب اللغة من يفيضون على الألفاظ القديمة روحًا تكفل حياتها والبعث له إلى جانب ذلك من المزايا أنه يصل

ما بين مدنية دراسة ومدينة وليدة يجب أن تتصل بها اتصال خلف بسلف ويقول الدكتور هيكل في نفس المقدمة في مقام آخر.

وتقوم لدى شوقي العاطفة الإسلامية فشوقي شاعر الإسلام والمسلمين كما أنه شاعر مصر وشاعر الشرق وعاطفة المسلم تتجه حتى العصور المتأخرة إلى جهتين ثم إلى قوميتين فهى تتجه صوب مكة مسقط رأس النبي عليه الصلاة والسلام ومقام إبراهيم كعبة المسلمين وقبلة أنظارهم ومكة في بلاد العرب، والنبي عربي، والقرآن عربي.

إلى جانب ما يرجوه المسلم من أهل البلاد الشرقية العربية في مكة من مدد روحي تحرك نفسه إلى هذه الأنحاء عاطفة أخرى هى العاطفة العربية هى عاطفة اللغة التي تربط اليوم أكثر من سبعين مليونًا أكثرهم مسلمين وكلهم خاضع لما يخضع له غيره من بطش القوة وسلطان التحكم واللغة في حياة الأمم ليس شأنها هينًا، فأي أمة لا لغة لها لا حياة لها، ورقي اللغة في أمة آية صادقة من آيات رقيها وما دام العرب مصدر اللغة وعلى رجل منهم هبط الوحي وبينهم قام صاحب الشريعة فلهم عند المسلمين كافة وعند الذين يتكلمون العربية خاصة حرمة تدفعهم إلى التغني بآثارهم والاشادة بقديم مجدهم وتمنى خير الأماني لهم لذلك كان العرب ومكة والوحي والقرآن والإسلام والرسول كلها معان لها من الأثر في نفس شوقي ما ليس لسواها من آثار الماضي ولذلك لم يكن شوقي يشيد بذكر المسلمين وبخلافتهم لغاية سياسية صرفة بل أنه ليؤمن بهذه المعاني ايمانًا يتجلى في الكثير من قصائده على صورة تتركنا في حيرة

كيف يبلغ الإيمان في نفس المحب للحياة كل هذا المبلغ، قد نجد لحيرتنا جلاء إلا من الحديث الشريف "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا".

وبحسبك أن تقرأ نهج البردة والهمزية لترى في غير ابهام أنه إنما أملت هذه القصائد قوة غلبت طبع الشاعر هى قوة الإيمان، وقد هاجم العقاد شعر شوقي وتصدى لقصيدة نهج البردة كما تصدى لها غيره من النقاد وكان كل همهم أن يكشفوا عن الأخطاء التاريخية التي وقع فيها شوقي معتمدين على قدرتهم على التمييز بين الصحيح والزائف من أخبار التاريخ ولم يستطع شوقي أن يرد عليهم ولم يستطع أصحابه أن يدافعوا عنه وقد نسى العقاد أن الحقيقة الشعرية حقيقة تختلف اختلافًا بينًا عن الحقيقة التاريخية، فالتاريخ يذكر الحوادث كما وقعت بالفعل ولكن الشعر يذكر الحوادث كما ينبغي أن تكون، وللشاعر أن يأخذ من التاريخ ما شاء له من موضوعات وله أن يغير فيه ما شاء وأن يفسره التفسير الذي يروقه ويحقق الهدف الفني الذي يرمي إليه، ولم يلتزم الشاعر عند أخذه موضوعًا تاريخيًا – حرفية الأحداث التي وقعت بالفعل ولكن شوقي لم يستطع أن يدافع عن نفسه بهذا الدفاع لأنه يترفع عن الرد.

ويقول أيضًا في مقدمة الشوقيات:

على أن التأثر بالحوادث في بعض الشئون التي لا يستقر للناس فيها عادة رأي قبل أن يصدر التاريخ حكمًا عليها خاليًا من العرض لا يؤثر

بشيء في روعة القصائد التي كان فيها وهو بعد لا يشغل من هذه القصائد إلا حيزًا ضيقًا فإن شوقي لا يزيد في القصائد التي تقال لمناسبة حادث من الحوادث على أن يشير لهذا الحادث بأبيات خلال القصيدة وفي آخرها فأما أكثر أبيات القصيدة فحكم غوال أو وصف رائع أو مستوى ذلك مما يلذ عقل شوقي أو خياله أن يفكر فيه أو يلهو به.

وهذه الحكم لم يتغير تقدير شوقي لها فهو يرى أن الأمم لا تقوم على دعامة غير دعامة الأخلاق وهو يرى ذلك برغم ما قد يبدو في بعض الأمم القوية من تدهور في الأخلاق فالعلم عنده حسن وله فائدته، والفن حسن كذلك وسائر أدوات الحضارة تصلح الأمم لكنها جميعًا لا فائدة من رقيها وغزارتها اذا انحطت أخلاق الأمة، فإن قويت هذه الأخلاق فقليل من ذلك كله كاف ليرتفع بالأمة إلى ذروة المجد والسؤدد.

وليس معنى هذا أن شوقي يحقر من شأن ما سوى الأخلاق فله عن العلم والفن والترحال والعمل وغيرها آيات بينات ولكن معناه أن الأخلاق عنده في المحل الأول وهو لا يمل من أن يكرر الدعوة إلى الخلق الصالح على أنه قوام حياة الأمم وكثير من أبياته في الأخلاق يتداولها الكثيرون.

1ـ هل للبردة ونهجها نظير في اللغات الأجنبية ؟

بالبحث وجدنا أن للبردة ونهجها في اللغات الأجنبية ما يشبهها إلى حد كبير هو الملحمة لدى شعراء الغرب فكما أن الملحمة قصة شعرية

موضوعها وقائع الأبطال الوطنيين العجيبة التي تبوئهم منزلة الخلود بين بني وطنهم وتقص على شكل معجزات قام بها هؤلاء الأبطال وبها سموا على الناس نجد البردة ونهجها كل يصف وقائع الرسول العجيبة التي تبوئه الخلود وصفاته وأخلاقه التي لم تتح لإنسان وتحصي كل ما حدث له من معجزات أيده الله بها وما أكثر تلك المعجزات ومن هنا وجدنا طول كل من القصيدتين ونجد في اللغة الفارسية أن الفردوسي قد ارتفع بالبطل رستم إلى منزلة كبيرة فجعله بطلًا مخلصًا لوطنه لا تستهويه المطامع وتحكى في شكل معجزات ما، قام بها هذا البطل في الحروب من الأمور العجيبة التي بوأته منزلة الخلود بين بني وطنه وتشيد بهذا البطل وتذكر مآثره وفضله وبطولته وقد دون الفردوسي كل هذا وغيره في الشاهنامة.

وقد وجدنا الشاهنامة عند الفردوسي والملاحم الأخرى عند الأوروبيين تشبه إلى حد كبير البردة ونهجها ولكن هناك فرق في ذلك.

ذلك أن البردة ونهجها تتكلم عن المعجزات التي وقعت حقيقة أما الشاهناة وغيرها ففيها نوع من الملاحم فتذكر ما قام به الأبطال لا على أنه معجزة ولكن على شكل معجزات ففيها نوع من المبالغة ولذلك لم يكن بد من ترجمة البردة إلى اللغة الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية.

2ـ قيمة النص الأدبي تقاس بالخلود فما نصيب البردة ونهجها من ذلك ؟

حقًا لقد بلغ البوصيري في ذلك الذروة وأتى بالمعجزات من القول في أسلوب رشيق وقالب أنيق ضمن لشعره الخلود على مدى الأيام وكر الأعوام وقد بلغ من اجادته في المدح والإعتذار أن أصبحت بردته تتلى الآن فلم تمت بموته بل ظل الكثيرون في مصر يترنمون بها حتى اليوم وحسبك اذا زرت مسجد السيدة أو الحسين بالقاهرة فستجد أناسًا يرددونها وقد بلغ من إعجاب بعض الصوفيين بفنها وروعتها وجمالها أن أصبحوا يتلونها يوميًا، ويحدث مثل ذلك أيضًا بمسجد البوصيري بالإسكندرية.

فلا عجب اذن أن يحذو شوقي حذوه فينشئ قصيدة ينهج نهجه فيها ويأتي بنفس المعاني فيصوغها في قالب جميل من الشعر وقد بلغ من إعجاب الناس بها أن انبرى لها بعض العلماء يشرحونها ويبينون ما فيها من أنواع البلاغة وعلى رأس هؤلاء الشراح الشيخ سليم البشري شيخ الجامع الأزهر رحمه الله وانبرى للبردة أيضًا بعض الشراح والمفسرين.

ويكفي شوقي فضلًا وصنيعًا مرضيًا عند الله ما أثاره شعره الروحي في نفوس الشباب من نزعة روحانية وعزة قومية وهيام بالهداية والدعوة إلى الحق في عصر نحن أحوج ما نكون فيه إلى مثل هذه الصيحات والإكثار منها.

وكل ما فيها من مظاهر الضعف أنها توسل، ونقاد الأدب يقولون أن التوسل بالأنبياء والأولياء لا يكثر إلا حين يكون الضعف، فيكون بمثابة تعبئة روحية يرجى أن تحل محل القوة المادية التي فقدها الشعب.

يقول الدكتور هيكل في مقدمة كتاب الشوقيات ص 15

على أن شوقي وإن كان شاعر مصر وشاعر العرب وشاعر المسلمين وكان فيه الازدواج بين حب الحياة ومتاعها والإيمان ونعيمه له ذاتيته التي لا تخفى فهو شاعر الحكمة العامة شاعر العربية السليمة وإنك لتعجب أكثر الأحيان حين ترى عنوان قصيدة من قصائد ثم لا تجد في القصيدة غير أبيات معدودة تدخل في موضوع العنوان بينما سائرها حكمة أو غزل أو وصف أو ما شاء لشوقي هواه ولا نجد شاعرًا بلغ في ذلك مبلغ شوقي.

وحكمة شوقي وما يصدر عنه من وصف وغزل وما يميز شعره جميعًا كأنه شرقي عربي لا يتأثر بالحياة الغربية إلا بمقدار وهذا طبيعي ما دام شوقي شاعر العرب والمسلمين وما دام يجد في الحضارة الشرقية القديمة ما يغنيه عن المدنية الغربية إلا بالمقدار الذي تحتاج إليه أمم الشرق في حياتها الحاضرة لسيرها في سبيل المنافسة العامة.

بعد هذا الذي تقدم يحق لنا أن نقرر ونحن مطمئنون أن البردة أحسن من نهجها رحم الله الإمام البوصيري بقدر ما قدم للإنسانية من عمل خالد خلاق.

الفهرس

الامام البوصيري

هذا الكتاب :

إن شخصية محمد بن عبد الله رسول البشرية وخاتم الأنبياء كانت ولا تزال مصدر إلهام لكثير من الشعراء ، والمفكرين. وكان من أوائل رواد فن المدائح النبوية حسان بن ثابت وكعب بن زهير والفرزدق والكميت في العصور الإسلامية الأولى ، ثم تبعهم نفر من الشعراء الذين أبدعوا في هذا الفن إبداعًا يلهب الشوق إلى رسول الإسلام وآل بيته الكرام، والبوصيري أمام المادحين ومن أئمة الصوفية المعدودين الذين خلد فكرهم فقد أفاض وأجاد في مدح الرسول الأكرم وقدم للعالم الإسلامي "بردته" الخالدة وهمزيته التي مطلعها:

كيف ترقى رقيك الأنبياء

يا سماء ما طاولتها سماء

وشخصية البوصيري أمام المادحين وبردته العصماء فهى جديرة بالإشادة والدراسة .